علماء النبات والبحار العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

علماء النبات والبحار العرب

د. محمد غياث المكتبي

عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email:almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

ابْنُ جَلْجَل
رائِدُ البَحْثِ العِلميِّ في عِلمِ النَّباتِ
(366 ـ 399هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

عاشَ ابنُ جَلْجَلَ في بلادِ الأَندلسِ، في القَرنِ الرَّابعِ الهِجريِّ، عِندَما كانَتِ النَّهضَةُ الفكريَّةُ والعلميَّةُ العَرَبيَّةُ والإِسلاميَّةُ في أَوجِها، وقَدْ تَضاءَلَتْ إِلى جانِبِها عُلومُ الغَربِ، وغَرقَ فيهِ عَالَمُهُمْ في دَياجيرِ الظُّلمِ والظَّلامِ والانحطاطِ والتَّخلُّفِ عَنِ العِلمِ والمَعرِفَةِ، وكانَ مِنْ أَبرَزِ العُلَماءِ الَّذِينَ أَسهَموا في بِناءِ الحَضارَةِ العَربيَّةِ والإِسْلاميَّةِ في بلادِ الأَندَلسِ؛ تلكَ الحَضارَةُ الَّتِي اسْتَقَتْ مِنها أُوربا حَضارَتَها ونَهضَتَها العلميَّةَ والفكريَّةَ في العَصرِ الحَديثِ.

فَلولا البُحوثُ والتَّجاربُ العِلميَّةُ الَّتِي قامَ بِها عُلماءُ العَرَبِ في بلادِ الأَندَلُسِ، وفي غَيرِها مِنَ الأَقطارِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ في ذاكَ الزَّمَنِ، لَما عَرَفَ الغَربُ التَّقدُّمَ والازْدِهارَ والتَّطورَ في العلومِ الصِّناعيَّةِ والطِّبيَّةِ والتِكنولوجيَّةِ وغيرِها مِنْ عُلومٍ ومَعارِفَ في شَتَّى المَجالاتِ والاتجاهاتِ والأَشياءِ.

أَجَل، لَقَدْ أَسهَمَ ابْنُ جَلجَلَ إِسهاماً كبيراً وعَظيماً في ارْتِقاءِ البُحوثِ العِلميَّةِ في عِلمِ النَّباتِ، وفي مَعرِفَةِ خصائِصِ وأَوصافِ النباتاتِ والأَعشابِ وخَواصِّها الطِّبيَّةِ والعِلاجيَّةِ والغِذائيَّةِ، ونَجَحَ نَجاحاً باهِراً في اسْتِدراكِ النَّقصِ الَّذِي غَفلَ عَنْهُ المُصَنِّفونَ والبَاحِثونَ والأَطِبَّاءُ الَّذِينَ عاشُوا قَبلَهُ في مُصَنَّفاتِهِمْ ومَعاجِمِهِمْ وأَبْحاثِهِمْ، حَتَّى إِنَّهُ صَوَّبَ ما جاءَ في كِتابِ الطَّبيبِ اليُوناني القَديمِ ديسْقوريدِس مِنْ أَخطاءَ لَمْ ينتبهْ إليها الشارحون والمترجمون قبله، وأَتَمَّ ما جاءَ فيهِ مِنْ نَقصٍ.

فَمَنْ هوَ ابْنُ جَلْجَلَ؟

❁ ❁ ❁

هوَ أَبو داؤدَ سُليمانُ بنُ حَسانَ، وقيلَ: داؤدُ بنُ حَسانَ، المَعروفُ: بِابْنِ جَلْجَلَ، وأَصلُهُ مِنْ قَبيلَةِ «لُخَم» الَّتِي سَكَنَتْ في بلادِ الشَّامِ، ولِدَ سَنَةَ (366) هجريَّةً في حاضِرَةِ بلادِ الأَنْدَلُسِ مَدينَةِ طُلَيطِلَةَ، ونَشَأَ وتَرَعْرَعَ فيها في عَهدِ أَميرِ بلادِ الأَندَلُسِ «عَبدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ المُنذِرِ» الأُمَويِّ، ورُبَّما كانَ لِمَوقِعِ مَدينَةِ طُلَيطِلَةَ ولِأَهَميَّتِها العلميَّةِ والتَّاريخيَّةِ، ولبيئَتِها الجَبليَّةِ والزِّراعيَّةِ أَثَرٌ في تَفَتُّحِ عَبقَريَّتِهِ مُنذُ صِغَرِهِ ومَيلِهِ نَحوَ الاهتِمامِ بِالنَّباتاتِ والأَعشابِ بَحثاً ودِراسَةً وتَصنيفاً.

لَقَدْ تَمَيَّزَتْ مَدينَةُ طُلَيطِلَةَ بالرَّخاءِ والنَّعيمِ، وبِوفرَةِ مياهِها وثِمارِها وبِتَنَوُّعِ أَشجارِها ونَباتاتِها، وبِكثْرَةِ عُلمائِها وأَطبائِها وفُقهائِها وشُعَرائِها، وهَذا ما يَجعَلُنا نَقِفُ ـ ولَو قَليلاً ـ عِندَ تاريخِها العَريقِ.

فَطُلَيْطِلَةُ مَعناها في اللُّغَةِ اللَّاتينيَّةِ «يولاطِل» أَي: «فَرَحَ ساكِنُها» لما يُلاقي فيها القاطِنُ مِنْ عَيشٍ مُسْتَقِرٍّ رَغيدٍ، ونَعيمٍ بَهيجٍ مُقيمٍ، وفي القَديمِ قَبلَ أَنْ يَدخُلَها العَرَبُ المُسلِمونَ، كانَتْ عاصِمَةَ بِلادِ الأَندَلُسِ، وحاضِرَةَ المُلْكِ، ومَعقَلَ القُوطِ الرُّومانِ عِندَما كانَ يُطلَقُ عَلى بِلادِ الأَندَلُسِ في ذَلِكَ الحينِ «مَملَكَة القُوطِ».

وقيلَ: إِنها مَدينَةٌ قَديمَةٌ جِداً بَناها العَماليقُ، يَمرُّ في وسَطِها نَهرُ تاجَه، وفيها مِنْ عَجائِبِ الطَّبيعَةِ والعُمرانِ ما يَخلبُ لُبَّ العاقِلِ، كانَ فيها بَساتينُ شاسِعَةٌ، وجَنَّاتٌ يافِعَةٌ، وكانَتِ الجِبالُ المُحيطَةُ بِها غَنيَّةً بِمَعادِنِ النُّحاسِ والحَديدِ، وعَلى مَقْرُبَةٍ مِنْها كانَتْ هُناكَ جِبالٌ يُؤكَلُ طينُها وتُرابُها، ويُنقَلُ إِلى مِصرَ وبِلادِ الشَّامِ والعِراقِ، ويُنَظَّفُ الشَّعرُ بِهِ مَغسولاً بِالماءِ.

وكانَ مِنْ عَجائِبِ طُلَيْطِلَةَ، أَنَّ حِنْطَتَها ـ أَيْ: قَمحَها ـ لا يُسَوِّسُ عَلى مَرِّ السِّنينِ، وكانَ الخَلَفُ يَتوارَثُهُ عَنِ السَّلَفِ، كَما كانَ نَباتُ الزَّعفَرانِ ونَباتُ الصِّمغِ فيها يَعُمَّانِ الآفاقَ.

ومِنَ العَجائِبِ الَّتي ذَكَرَها المُؤرِّخونَ في مَدينَةِ طُلَيطِلَةَ أَيضاً، أَنهُ كانَ في إِحدى القُرى القَريبَةِ مِنها عَينا ماءٍ، إِذا نَضَبَتْ إِحداهُما جَرَتِ الأُخرى عَلى مَدارِ السَّنَةِ كُلِّها.

كَما كانَ عَلى بُعدِ أَميالٍ مِنْها قَريَةٌ وادِعَةٌ تُسَمَّى «مَجريطا» وهيَ القَريَةُ الَّتي يُنسَبُ إِلَيها العَالِمُ والجُغرافِيُّ والفَلَكيُّ «المَجريطيُّ»، وهيَ نَفسُها اليَومَ مَدينَةُ مَدريدَ عاصِمَةُ دَولَةِ «إِسبانيا»، وكانَ فيها بِئرٌ مَعروفَةٌ إِذا شَرِبَ مِنْ مائِها العَليلُ بَرِئَ وشُفِيَ مِنْ مَرضِهِ.

وعِندَما فَتَحَ العَرَبُ المُسلمونَ بِلادَ الأَندَلُسِ، ودَخَلوا مَدينَةَ طُلَيطِلَةَ بِقيادَةِ طارِقِ بنِ زِيادٍ، ثُمَّ بِقيادَةِ موسَى بنِ نُصيرٍ مِنْ بَعدِهِ، وجَدوا فيها مِنَ الجَواهِرِ والنَّفائِسِ واللآلِئ ما لا يُحصَى لَها عَدَدٌ، وقيلَ: إِنَّهُمْ وجَدوا فيها مائِدَةَ نَبِيِّ اللهِ سُلَيمانَ بنِ داوُدَ عليه السلام، وهيَ مائِدَةٌ عَظيمَةٌ خَضراءُ مِنْ ذَهَبٍ وياقوتٍ وزَبَرجَدَ، زَعَموا أَنَّ المائِدَةَ نُقِلَتْ مِنْ بَيتِ المَقدِسِ إِلى طُلَيطِلَةَ بَعدَ أَنْ غَزاها المَلِكُ البابِلِيُّ نُبوخَذ نَصر. ويُقالُ: إِنَّها نُقِلَتْ إِلى دِمَشقَ في عَهدِ الخَليفَةِ الأُمَويِّ الوَليدِ بنِ عَبدِ المَلِكِ.

❁ ❁ ❁

عِندَما فَتَحَ العَرَبُ المُسلِمونَ بِلادَ الأَندَلُسِ، بَنوا فيها مَدينَةً عَظيمَةً عَلى بُعدِ أَميالٍ مِنْ مَدينَةِ طُلَيطِلَةَ، وأَقاموا فيها القُصورَ المُنيفَةَ، وشَيَّدوا فيها المَساجِدَ والمَدارِسَ وجَعلوها عاصِمَةَ مُلكِهِمْ، وأَطلقوا عَليها قُرْطُبَةَ.

ومِنَ الطَّبيعيِّ أَنْ تُصبِحَ قُرطَبَةُ حاضِرَةَ بِلادِ الأَندَلُسِ، ومِعقَلَ العِلمِ والعُلماءِ، ومَهدَ الحَضارَةِ الَّتِي شَهِدَتْها بِلادُ الأَندَلُسِ في تِلكَ الحُقبَةِ مِنَ الزَّمَنِ، وبِالتَّالي أَصبَحَتْ تُضاهي مَدينَةَ طُلَيطِلَةَ في التَّقدُّمِ والازْدِهارِ وتَفوقُها.

بَعدَ أَنْ بَلَغَ ابن جَلجَلَ سنَّ الرُّشْدِ، وجَدَ نَفسَهُ مُضْطَّراً إِلى الانْتقالِ مِنْ طُلَيطِلَةَ إِلى قُرطُبَةَ طَلَباً لِلعِلمِ والمَعرِفَةِ، فَاسْتَكْمَلَ مُشوارَهُ العِلميَّ عَلى يَدِ العُلماءِ والشُّيوخِ والأَطِبَّاءِ في مَدينَةِ قُرطُبَةَ حَتَّى لَمَعَ نجْمُهُ وذاعَ صيتُهُ كَطَبيبٍ حاذِقٍ، وكَعالِمٍ بارِعٍ في النَّباتاتِ والأَعشابِ والأَدويَةِ لا يَعلو عَلى عِلمِهِ في ذَلِكَ أَحَدٌ في بلادِ الأَندَلُسِ وفي خارِجِها،

فَقَرَّبَهُ إِلى بَلاطِهِ أَميرُ دَولَةِ الأَندَلُسِ النَّاصِرُ عبدُ الرَّحمَنِ وكَلَّفَهُ بِتَرجَمَةِ وتَفسيرِ كِتابِ الطَّبيبِ اليُّوناني ديسقوريدس في الأَدويَةِ المُفْرَدَةِ، فَأَضافَ ابنُ جَلْجَلَ مِنْ جُهدِهِ ومِنْ عِلْمِهِ إِلى عِلمِ الطِّبِ والأَدويَةِ معارِفَ ومَعلوماتٍ جَديدَةً لَمْ يَتَوَّصَلْ إِلَيْها العُلَماءُ قَبلَهُ، حَتَّى لَمْ يَعرِفْها ديسقوريدس نَفسُهُ.

❁ ❁ ❁

عِندَما تَوَلَّى النَّاصِرُ عَبدُ الرَّحمَنِ إِمارَةَ دَولَةِ الأَنْدَلُسِ، سَعَى في تَنشيطِ حَرَكَةِ النَّهضَةِ العِلميَّةِ والعُمرانِيَّةِ في كافَةِ أَنْحاءِ البِلادِ، وفي مَدينَةِ قُرطُبَةَ خاصَّةً؛ لِأَنهُ كانَ رَجُلاً يُحبُّ العِلمَ، ويُوَقِّرُ العُلَماءَ، فَاسْتَقدَمَ العُلَماءَ مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ بِلادِ الأَنْدَلُسِ إِلى قُرطُبةَ وأَغدَقَ عَليهِمُ المِنَحَ والهَدايا والأُعطياتِ لِيَتَفَرَّغوا لِلبَحْثِ العِلميِّ ووَضْعِ المُصَنَّفاتِ في شَتَّى فُروعِ المَعرِفَةِ، فَصارَ العُلَماءُ العَرَبُ يَتَوافَدونَ مِنْ جَميعِ البِلادِ العَربيَّةِ للإِقامَةِ في قُرطُبَةَ الَّتِي أَصبَحَتْ حاضِرَةَ العِلمِ في العالَمِ أَجْمَعَ في عَهدِ النَّاصِرِ عَبدِ الرَّحمَنِ، فَقَدْ أَقامَ فيها القَناطِرَ والجُسورَ والحَدائِقَ العامَّةَ والمَزارِعَ والبَساتينَ الخَاصَّةَ بِزراعَةِ الأَعشابِ والنَّباتاتِ المُفيدَةِ في مُعالَجَةِ الأَمراضِ، وأَنْشَأَ مَدرَسَةً قُربَ جامِعِ قُرطُبَةَ الكَبيرِ خاصَّةً في البَحثِ العِلميِّ؛ كانَتْ أَولَ مَعهَدٍ عالَميٍّ يَقصُدُهُ طُلَّابُ العِلمِ مِنْ كافَّةِ البُلدانِ والأَصقاعِ ومِنْ بِلادِ أوربا بِالذَّاتِ.

كَما بَنَى في قُرطُبَةَ قَصرَ الزَّهراءِ الَّذِي يُعتَبَرُ الآنَ أُعجوبَةً مِنَ العَجائِبِ النَّادِرَةِ في

العالَمِ، وقَدْ بَلَغَ مِنْ شدَّةِ احترامِهِ وتَقديرِهِ لِلعِلمِ أَنْ عَيَّنَ وزيراً لَهُ لِيُساعِدَهُ في إِدارَةِ شُؤونِ البِلادِ والعِبادِ طَبيباً مِنْ أَطبَّاءِ الأَندَلُسِ اسمُهُ يَحيَى بنُ إِسْحاقَ.

وكانَ كَتابُ ديسْقوريدس في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ قَدْ تُرْجِمَ مِنَ اليُونانيَّةِ إِلى العَربيَّةِ في مَدينَةِ بَغدادَ في عَهدِ الخَليفَةِ العبَّاسيِّ المَأْمونِ عَلى يَدِ المُتَرجِمِ اسْطفانَ بنِ باسيلَ، وانْتَشَرَتْ هَذِهِ التَّرجَمَةُ في البُلدانِ والأَصقاعِ العَرَبيَّةِ والإِسلاميَّةِ، ووَصَلَتْ إِلى الأَندَلُسِ، ولمْ تَكُنْ هَذِهِ التَّرجَمَةُ وافِيَةً وشارِحَةً لِكُلِّ ما ذَكَرَهُ ديسقوريدس مِن حَقائِقَ ومَعلوماتٍ عَنِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، وحَدَثَ أَنْ أَهدَى حاكِمُ القِسطَنطينيَّةِ الرُّوماني النَّاصِرَ عَبدَ الرَّحمَنِ كِتابَ ديسقوريدس في لُغَتِهِ الأَصليَّةِ اليُونانيَّةِ، فَأَرادَ النَّاصِرُ عَبدُ الرَّحمَنِ تَرجَمَتَهُ إِلى العَربيَّةِ، فَاسْتَقدَمَ لِهَذا الغَرَضِ مِنْ بلادِ اليُونانِ الرَّاهِبَ نيقولاي، وكَلَّفَ ابنَ جَلْجَلَ في مُساعَدتِهِ والإِشرافِ عَليهِ، لِأَنهُ كانَ عارِفاً بِاللُّغَةِ اللَّاتينيَّةِ ومُطَّلِعاً عَليها.

❁ ❁ ❁

وَجَدَ ابنُ جَلْجَلَ أَنَّ ديسقوريدس لَمْ يَذكُرْ في كِتابِهِ كُلَّ ما يُذْكَرُ ويُسْتَعمَلُ ويُنتَفَعُ بِهِ في صِناعَةِ الطِّبِّ، وما لا يُسْتَعمَلُ، فَعَمَدَ ابنُ جَلْجَلَ إِلى تَأليفِ رِسالَةٍ في ذكرِ الأَدويَةِ الَّتِي لَمْ يَذكُرْها ديسْقوريدس؛ ، فَقَدِ اسْتَنَدَ مُعظَمُ الباحثينَ في الأَعشابِ والنباتاتِ عَلى مُؤَلفاتِ ديسقوريدس، فَجاءَ ابنُ جَلْجَلَ بِجرأَةٍ عِلميَّةٍ ورَمَّمَ ما كانَ في كِتابِهِ مِنْ نَقْصٍ، وكَتَبَ مُضيفاً إِلى هَذِهِ المَعلوماتِ ما اعتَقَدَ أَنَّ ديسقوريدس أَغفَلَهُ، وأَضافَ ابنُ جَلْجَلَ ما كَتَبَهُ

إِلى كِتابِ ديسقوريدس الَّذِي تَرجَمَهُ، فَجاءَ الكِتابانِ مُتَكامِلَيْنِ تَماماً، يُمَثِّلان مَرجعاً واحِداً وهاماً في هَذا العِلمِ.

يَقولُ ابنُ جَلجَلَ: «إِنَّ ديسقوريدس أَغفَلَ ذَلِكَ إِمَّا لِأَنهُ لَمْ يَرَهُ ولَمْ يُشاهِدْهُ عياناً، وإِمَّا لِأَنَّ ذَلِكَ كانَ غَيرَ مُسْتَعمَلٍ في دَهرِهِ وأَبناءِ جِنسِهِ».

وذَكَرَ ابنُ أَبي أُصَيبِعةَ في كِتابِهِ «عُيونِ الأَنْباءِ في طَبقاتِ الأَطِبَّاءِ» ما جاءَ عَلى لِسانِ ابنِ جَلجَلَ: «وكانَ لي في مَعرِفَةِ هُيولى الطِّبِ الَّذِي هوَ أَصلُ الأَدويَةِ المُرَكَّبَةِ حِرصٌ شَديدٌ، وبَحثٌ عَظيمٌ، حتَّى وهَبنيَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ بِفَضْلِهِ ما أَطَّلِعُ عَليهِ في نِيَّتي في إِحياءِ ما خُفِيَ، فَاللهُ قَدْ خَلَقَ الدَّواءَ وبَثَّهُ فيما أَنْبَتَهُ الأَرضَ، أَو اسْتَقَرَّ عَليها مِنْ حَيوانِ المَشَّاءِ، أَو السَّابِحِ في الماءِ والمُنسابِ، وما يَكونُ تَحتَ الأَرضِ وفي جَوفِها مِنَ المَعادِنِ، كُلُّ ذَلِكَ فيهِ شِفاءٌ ورَحمَةٌ ورِفقٌ».

❋ ❋ ❋

أَقامَ ابنُ جَلجَلَ في قُرطُبَةَ، وأَمضَى فيها مُعظَمَ حَياتِهِ ولَمْ يُغادِرْها بَعدَ قُدومِهِ مِنْ طُلَيطِلَةَ أَبداً، وعَكَفَ فيها عَلى البَحْثِ والتَّصنيفِ في الأَعشابِ والنَّباتاتِ، وبَعدَ النَّاصِرِ عَبدِ الرَّحمَنِ تَولَّى إِمارَةَ الأَندلُسِ الأَميرُ هِشامٌ المُؤَيَّدُ بِاللهِ، فَلاقى ابنُ جَلجَلَ مِنْهُ كُلَّ اهتِمامٍ وتَشجيعٍ عَلى المُثابَرَةِ في البَحثِ والاسْتِقصاءِ والتَّصنيفِ والتَّدوينِ، لأَنَّ هِشاماً المُؤَيَّدَ بِاللهِ كانَ صاحِبَ فِكرٍ وأَدَبٍ جَمٍّ، وحُكِيَتْ عَنْهُ حِكاياتٌ عَجيبَةٌ في تَقديرِ العِلمِ والعُلَماءِ.

ورغمَ أَنَّ ابنَ جَلجَلَ عاشَ حَياةً قَصيرَةً، حَيثُ تُوفِّيَ عَنْ عُمرِ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنَةً ودفِنَ في قُرطُبَةَ عام (399) هجريَّةً، إِلَّا أَنهُ تَرَكَ آثاراً جَليلَةً وعَظيمَةً في عِلمِ الطِّبِ والنَّباتاتِ والأَعشابِ والصَّيدَلَةِ.

فَمِنَ المُؤَلفاتِ العَظيمَةِ والمُهِمَّةِ الَّتِي خَلَّدَها لَهُ التَّاريخُ ما يَلي:

1 ـ تَفسيرُ أَسماءِ الأَدويَةِ مِنْ كِتابِ ديسقوريدس، يوجَدُ مِنْهُ نَسخَةٌ في مَكتَبَةِ بَنكبور في الهندِ تَحتَ رَقم (2189).

2 ـ مَقالَةٌ في ذِكر الأَدويَةِ الَّتِي لَمْ يَسْتَعمِلْها ديسقوريدس في كِتابِهِ مِمَّا يُسْتَعمَلُ في صِناعَةِ الطِّبِّ، يوجَدُ مِنْها نَسْخَةٌ في مَكتَبَةِ بودليا في أكسفورد بِرَقمِ (573) عنوانُها: «اسْتِدراكٌ عَلى كِتابِ الحَشائِشِ لديسقوريدس».

3 ـ مَقالَةٌ في أَدويَةِ التِّرياقِ، يوجَدُ مِنها نَسْخَةٌ في مَكتَبَةِ بودليا بِأكسفورد.

4 ـ رِسالَةُ التَّبيينِ فيما غَلَطَ فيهِ بَعضُ المُتَطَبِّبينَ، قيلَ عَنها إنَّها ضاعَتْ.

5 ـ كِتابُ طَبَقاتِ الأَطباءِ والحُكَماءِ، أَلَّفَهُ خِدمَةً لِلعِلمِ وطُلَّابِهِ، فَاحتَوى عَلى تَراجِمِ كِبارِ العُلَماءِ في حَقلَيِّ الطِّبِّ والصَّيدَلَةِ، والكِتابُ هذا مَرجِعٌ في هَذا الحَقلِ للعالَمِ كُلِّهِ، نَقَلَ عَنهُ المُؤرِّخونَ الشَّرقيونَ في كُتُبِهِمْ أَمثالُ: ابنِ القفطيِّ، وابنِ أَبي أُصَيبعَةَ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ كَيفَ عَرَفَ الغَربُ التَّقَدُّمَ والتَّطَورَ في العلومِ الصِّناعيَّةِ وغيرِها؟

2 ـ بِماذا أَسهَمَ ابن جَلجَلَ؟

3 ـ إِلى مَنْ يَرجِعُ أَصلُ ابنِ جَلجَلَ، وأَينَ ولِدَ، وفي أَيِّ عامٍ؟

4 ـ بِماذا تَمَيَّزَتْ مَدينَةُ طُلَيطِلَةَ؟

5 ـ ماذا أقامَ العَربُ المسلمونَ في مَدينَةِ قُرطُبَةَ؟

6 ـ بَماذا كَلَّفَ النَّاصِرُ عبدُ الرَّحمَنِ ابنَ جَلجَلَ؟

7 ـ كيفَ وجَدَ ابنُ جَلجَلَ كِتابَ ديسقوريدس، وماذا فَعَلَ؟

8 ـ عَدِّدْ مُؤلفاتِ ابنِ جَلجَلَ؟

ابنُ البيطارِ
رئيسُ العَشَّابينَ وطَبيبُ الملوكِ
(593 ـ 646هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ البيطارِ، أَحَدُ عُلماءِ النَّباتِ العَربِ الَّذِين ولِدوا في الأَندَلُسِ، ودَرسوا فيها في القرنِ السَّابعِ الهجريِّ، وقَدموا للِفكرِ الإِنسانيِّ خُلاصَةَ جُهدِهِمْ وتَعَبِهِمْ وسَهَرِهِمْ ونَشاطِهِمُ الدَّؤوبِ مِنْ أَجلِ خَيرِ الإِنسانيَّةِ وارتِقاءِ مَعارِفِها وعُلومِها.

لَقَدْ تَحَمَّلَ ابنُ البيطارِ المَشاقَّ، ورَكبَ الوَيلاتِ والأَهوالَ، وهو يَتَنَقَّلُ مِنْ بَلدٍ إِلى آخَرَ بَحثاً عَنِ العِلمِ والمَعرِفَةِ لِيَقتَنِصَها ثمَّ لِيُفيدَ بَني قَومِهِ وأَبناءَ جلدَتِهِ، ثُمَّ سائِرَ الإِنسانيَّةِ بِها. لَمْ يَكتَفِ بِما تَعَلَّمَهُ في بِلادِهِ عَلى يَدِ أَساتِذَتِهِ ومُعَلِّميهِ، وإِنَّما شَغَفُهُ وولوعُهُ بِالعِلمِ والمَعرِفَةِ دَفَعاهُ إِلى الرِّحلَةِ في طَلَبِ العِلمِ، والاطِّلاعِ عَلى مَعارِفِ الآخَرينَ وتجارِبِهِمْ وتَصانيفِهِمْ.

وهوَ لَمْ يَرحَلْ في سَبيلِ طَلبِ العِلمِ إِلى بَلَدٍ عَربيٍّ أَو إِسلاميٍّ مُجاورٍ لِبَلَدِهِ، وإِنما رَحلَ إِلى بِلادِ الرُّومانِ والإِغريقِ؛ بِلادِ ديسقوريدس ذاتِهِ الَّذِي كانَ كِتابُهُ في النَّباتاتِ

والأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ المَرجعَ الأَساسيَّ لِكُلِّ باحثٍ في علومِ النَّباتِ والأَعشابِ والتَّطبيبِ.

رَحلَ إلى هُناكَ لِيَطَّلِعَ عَلى النباتاتِ والأَعشابِ الَّتِي ذَكَرها ديسقوريدس ولَمْ تَكُنْ مَوجودَة في البِلادِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ، وإِنَّما في بلادِ الرُّومانِ والإِغريقِ، وجَلَبَ مَعَهُ عَيِّناتٍ مِنْها لِيَسْتَخدِمَها في الزِّراعَةِ والتَّطبيبِ.

وبَعدَ عودَتِهِ مِنْ بِلادِ الإِغريقِ، عَملَ طَبيباً وعَشَّاباً مُتَنَقِّلاً بينَ مِصرَ وبِلادِ الشَّامِ، ولاقَى حظْوَةً كبيرَةً في بلاطِ المُلوكِ الأَيوبيِّينَ في مِصرَ والشَّامِ بِشَكلٍ خاصٍّ عِندَ المَلِكِ الصَّالِحِ والمَلِكِ العادِلِ.

وكانَ لا يَحجِبُ عِلمَهُ عَنْ طالِبٍ أَو قاصِدٍ، فَنَشَرَ عِلمَهُ بينَ النَّاسِ، وجَلَسَ لِلسَّاعينَ إِليهِ عِندما انْتَشَرَ صيتُهُ العِلميُّ في البُلدانِ والأَصقاعِ، وقَصَدَهُ طُلَّابُ العِلمِ مِنْ كُلِّ مَكانٍ، واسْتَقَرَّ بِهِ المَقامُ في دِمَشقَ حتَّى أَدرَكَتْهُ الوَفاةُ ودُفِنَ فيها سَنَةَ (646) هجريَّةً.

فَمَنْ هُوَ ابنُ البيطارِ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ ضِياءُ الدِّينِ أَبو مُحَمَّدٍ عَبدُ اللهِ بنُ أَحمَدَ المَالِقي النَّباتي المَعروفُ بِابنِ البيطارِ. ولِدَ في بِلادِ الأَندَلُسِ في مَدينَةِ مالِقَةَ عامَ (593) هجريَّةً، ونَشَأَ وتَرَعرَعَ فيها، ومُنذُ نُضوجِهِ العَقليِّ المُبَكِّرِ، وجَدَ في نَفسِهِ ميلاً نَحو الاهتمامِ بالنباتاتِ والأَعشابِ في بيئَةٍ جَبَليَّةٍ وساحليَّةٍ ساعَدَتْهُ عَلى تَنميَةِ مواهِبِهِ في البَحثِ والدِّراسَةِ في النَّباتاتِ والأَعشابِ،

ولاسِيَّما أَنَّ والِدَهُ كانَ يَعمَلُ طَبيباً بيطَريّاً، فَلَمْ تَرْوِ ظَمَأَهُ لِلعِلْمِ مِهنَةُ أَبيهِ، والتَفَتَ إِلى عِلمِ النَّباتِ والأَعشابِ الَّذِي كانَ يُلاقي رِواجاً عَظيماً في بِلادِ الأَندلُسِ بِشَكلٍ خاصٍّ، وصاحَبَ أُستاذَهُ النَّباتيَّ والعَشَّابَ ابنَ الرُّوميَّةِ.

كانَتْ مَدينَةُ مالِقَةَ ـ مسْقَطُ رأْسِ ابن البيطارِ ـ مَدينَةً رائِعةً جَميلَةً هادِئَةً، تَقَعُ عَلى سَواحِلِ بِلادِ الأَندَلُسِ المُطلَّةِ عَلى البَحرِ الأَبيضِ المُتَوَسِّطِ، يُحيطُ بِها سوراً صَخريّاً تَتَلاطَمُ عَلى جَنباتِهِ أَمواجُ البَحرِ، وهيَ مِنَ المُدُنِ القَديمَةِ في بِلادِ الأَندَلُسِ، بَناها الإِغريقُ اليُونانيونَ عَندَما وقَعَتْ تَحتَ سَيطَرَتِهِمْ بِلادُ الأَندَلُسِ قَديماً، وكانَتْ تُسَمَّى حينَها بِلادَ القُوطِ.

وهيَ مَدينَةٌ حَصينَةٌ مَنيعَةٌ وافِرَةُ الخيراتِ آهِلَةٌ بِالعُمرانِ مُكتَظَّةٌ بِالسُّكانِ، ولَها خَمسَةُ أَبوابٍ مُنتَشِرَةٌ عَلى جَوانبِ سورِها مِنْ كافَّةِ اتجاهاتِها.

ومِمَّا ذَكَرَهُ الحَميريُّ في كِتابِهِ «الرَّوضِ المِعطارِ في خَبَرِ الأَقطارِ» عَنْ مَدينَةِ مالِقَةَ أَنها مَذكورةٌ في كُتُبِ الأَوائِلِ، فَقالوا: «مَدينَةُ مالِقَ لا بَأْسَ عَليها ولا فَرقَ، آمِنَةٌ مِنْ جوعٍ وسَبيٍ». وقيلَ: إِنَّ هَذِهِ الكَلماتِ وجِدَتْ في بَعضِ حِجارَتِها نَقشاً بِالقَلَمِ الإِغريقي.

اشْتُهِرَتْ مَدينَةُ مالِقَةَ في ذَلِكَ الزَّمَنِ بِثِمارِ التِّينِ، حيثُ كانَتْ أَشجارُ التِّينِ تُحيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وقَدْ عُرِفَ التِّينُ المَنسوبُ إِليها في بِلادِ مِصرَ والعِراقِ والشَّامِ والهندِ، وكانَ يُحمَلُ إِليها ولَمْ يَكُنْ أَحسَنُ مِنَ التِّينِ المَالقي طيباً ورُطوبَةً وعُذُوبَةً، حَتَّى إِنهُ نُظِمَتْ

فيهِ الأَشعارُ والقَصائِدُ الحِسانُ، حَتَّى إِنَّ القَاضي والمُحَدِّثَ الشَّهيرَ ابن حوطٍ الأَنصاريَّ لَمَّا ولِّيَ القَضاءَ في مالِقَةَ وخَرَجَ النَّاسُ لاستِقبالِهِ أَنشَدَ يَقولُ:

مالِقَةُ حُيِّيتَ يا تينُها ... الفُلكُ مِنْ أَجلِكَ يَأتينَها

نَهَى طَبيبي عَنكَ في عِلَّتي ... ما لِطَبيبي عَنْ حَياتي نُها

وفي وَسَطِ هَذا الجَوِّ المَشحونِ بِالعُذوبَةِ والطِّيبِ لِمدينَةِ مالِقَةَ بَزَغَ نَجمُ ابنِ البيطارِ كَعالِمٍ في النَّباتِ، وكَطبيبٍ عارِفٍ بِالأَدويَةِ والأَعشابِ الشَّافِيَةِ.

❁ ❁ ❁

تَرَدَّدَ ابنُ البيطارِ عَلى أُستاذِهِ ابنِ الرُّوميَّةِ في مَدينَةِ إِشبيليَةَ الَّتِي لا تَبعدُ كَثيراً عَنْ مالِقَةَ، وتَأَثَّرَ بِهِ كَثيراً، فَقَدْ كانَ ابنُ الرُّوميَّةِ مِنْ كِبارِ أَعيانِ مَدينَةِ إِشبيليَةَ وأَبرَزِ عُلمائِها الموسوعيينَ، فَقيهاً مُحَدِّثاً وعالماً بِالنَّباتاتِ والأَعشابِ والأَدويَةِ المُطَبَّبَةِ، وقَامَ بِالرِّحلاتِ المُختَلِفَةِ إِلى بِلادِ مِصرَ والشَّامِ مِنْ أَجلِ الاطِّلاعِ والتَّعرُّفِ عَلى النَّباتاتِ الَّتِي لا تُوجَدُ في الأَندلُسِ، فَانْتَقَلَتْ عَدوَى السَّفَرِ والرِّحلَةِ مِنْهُ إِلى تِلميذِهِ ابنِ البيطارِ الَّذِي ما فتئَ هُوَ الآخَرُ عَن طَلبِ الرِّحلَةِ إِلى أَصقاعٍ وبُلدانٍ بَعيدَةٍ مِنْ أَجلِ الغَرَضِ ذاتِهِ.

في البِدايَةِ صَحِبَ ابنُ البيطارِ أُستاذَهُ ابْنَ الرُّوميَّةِ، وكانا يَخرُجانِ سَويَّةً إِلى الأَريافِ والقُرى والجبالِ المُتاخِمَةِ لِمالِقَةَ ولِإِشبيليَةَ لِيُعاينا مَعاً النَّباتاتِ والأَعشابَ، وبَعدَ أَنْ تَمَكَّنَ ابنُ البيطارِ مِنْ هَذا العِلمِ وأَتْقَنَهُ بَدأَ رِحلَتَهُ مُنطَلِقاً مِنَ الأَندَلُسِ بِاتِّجاهِ بِلادِ الرُّومانِ واليُونانِ مارّاً بِكَثيرٍ مِنَ البُلدانِ الأوروبيَّةِ.

وفي بِلادِ اليُونانِ لَقيَ كَثيراً مِنَ المُهتَمِّينَ بِدراسَةِ النَّباتاتِ والأَعشابِ فَاسْتَفادَ مِنْهُمْ، ورافَقَهُمْ لِمُعايَنَةِ النَّباتِ في مواضِعِهِ.

ثُمَّ تَوَجَّهَ في رِحلَتِهِ إِلى بِلادِ الشَّرقِ، ووَفدَ إِلى دَمَشْقَ وأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ، وبَلَغَ صيتُهُ الحَسَنُ المَلِكَ العادِلَ نورَ الدِّينِ، فَقَرَّبَهُ إِليهِ وأَكرَمَ عِلمَهُ وشَخصَهُ وصارَ طَبيبَ البلاطِ المَلَكيِّ في دِمشقَ، كَما صارَتْ لَهُ كَلِمَةٌ نافِذَةٌ عِندَ المَلِكِ العَادِلِ نورِ الدِّينِ.

وفي مصرَ لاقَى حظوةً عَظيمَةً في بلاطِ المَلِكِ الكامِلِ ابن أَيوبَ وصارَ يَعتَمدُ عَليهِ في النَّباتاتِ والأَعشابِ، وجَعَلهُ طَبيبَهُ الخاصَّ، وعَيَّنَهُ رَئيساً عَلى العَشَّابينَ والمُطَبِّبينَ في مِصرَ، وهَذا ما أَثارَ عَليهِ حَفيظَةَ العَشَّابينَ المِصريينَ وحِقدَهُمْ وحَسَدَهُمْ لَهُ، فَسَعوا غَيرَ مَرَّةٍ لِلإِيقاعِ بِهِ في مَجلِسِ المَلِكِ الكامِلِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحوا.

ثمَّ في عَهدِ خَليفَتِهِ المَلِكِ الصَّالِحِ نَجمِ الدِّينِ لاقَى ابنُ البيطارِ مِنْهُ كُلَّ اهتِمامٍ وعِنايَةٍ وتَقريبٍ.

❋ ❋ ❋

ومِنْ خِلالِ إِقامَةِ ابن البيطارِ في مِصرَ، وعَلاقَتِهِ المَتينَةِ مَعَ المَلِكِ الكامِلِ والمَلِكِ الصَّالِحِ شَاعَ صيتُهُ في الآفاقِ، وعَلا ذِكرُهُ بينَ النَّاسِ كَنَباتيٍّ وعَشَّابٍ وطَبيبٍ مُتَمَكِّنٍ مِنْ مِهنَتِهِ، وعارِفٍ بِالأَدويَةِ المُفرَدَةِ لا يَعلو عَلى عِلمِهِ أَحدٌ في ذَلِكَ.

قالَ عَنهُ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ: «ابنُ البيطارِ مِنْ أَعظَمِ عُلماءِ المُسلمينَ في النَّباتاتِ والعَقاقيرِ، طَغَتْ شهرَتُهُ عَلَيْهِمْ جَميعاً في القُرونِ الوسْطَى».

ومِمَّا يَدلُّ عَلى تَفوُّقِهِ عَلى أَقرانِهِ في هَذا العِلمِ، ما ذَكَرَ عَنهُ المُحبيُّ في كِتابِهِ «خُلاصَةِ الأَثَرِ في أَعيانِ القَرنِ الحادي عَشَر»:

«إِنَّ طَبيباً عَشَّاباً سَعَى لِلإِيقاعِ بِهِ في مَجلِسِ أَحَدِ السَّلاطينِ، وأَخرَجَ هَذا العَشَّابُ مِنْ جعْبَتِهِ عُشْبَةً أَو نَبْتَةً ودَفَعَها لِلسُّلطانِ ـ وكانَ ابنُ البيطارِ غائِباً عَنْ مَجلِسِ السُّلطانِ ـ وقالَ لَهُ:

هَذِهِ النَّبْتَةُ يا مَولايَ، إِذا جاءَكَ ابنُ البيطارِ فَمرْهُ أَنْ يشُمَّها مِنْ وجهِها الأَوَّلِ. فَلَما دَخَلَ ابنُ البيطارِ عَلى السُّلطانِ دَفَعَ إِليهِ السُّلطانُ النَّبتَةَ وطَلَبَ مِنهُ أَنْ يَشُمَّها مِنْ وجْهِها الأَوَّلِ.

عِندَما نَظَرَ ابنُ البيطارِ إِلى النَّبتَةِ عَرَفَها مِنْ فَورِهِ، فَتَناوَلَها مِنْ يَدِ السُّلطانِ، وقَرَّبَها مِنْ أَنْفِهِ، وأَخذَ يَشُمُّها أَمامَ السُّلطانِ وفقَ ما طَلبَ مِنهُ العَشَّابُ ذَلِكَ.

عِندما شَمَّ ابنُ البيطارِ النَّبتَةَ أَصابَهُ رُعافٌ[1]، ولَكِنَّه قَلَّبَ النَّبْتَةَ بينَ يَديهِ، وشَمَّها مِنْ وجْهِها الثَّاني، فَسَكَنَ رُعافُهُ، وانْقَطَعَ الدَّمُ عَلى الفَورِ مِنْ أَنفِهِ. فَأُعجِبَ السُّلطانُ بِخبْرَتِهِ وذَكائِهِ.

ثُمَّ دَفَعَ ابنُ البيطارِ النَّبتَةَ إِلى السُّلطانِ وقالَ لَهُ:

إِذا جاءَكَ العَشَّابُ الَّذِي أَعطاكَ النَّبتَةَ فَمرْهُ أَنْ يَشُّمَها يا مَولايَ، فَإِنْ عَرَفَ وجْهَها الثَّاني، فَإِنَّهُ طَبيبٌ، وإِنْ عَجزَ عَنْ مَعرِفَتِهِ فَهو مُتَشَيِّعٌ بِما لَمْ يُعطَ.

---

(1) الرُّعافُ: دَمٌ يَنزلُ مِنَ الأَنفِ.

عِندَما عادَ العَشَّابُ إلى السُّلطانِ مَرَّةً أُخرى، دَفَعَ إليهِ النَّبتَةَ وطَلَبَ مِنهُ أَن يَشُمَّها. فَامْتَثَلَ لِأَمرِ السُّلطانِ وحَمَلَ النَّبتَةَ بينَ يَديهِ وشَرعَ في شَمِّها، فَأَصابَهُ الرُّعافُ، وبَدأَ الدَّمُ يَسيلُ مِنْ أَنْفِهِ، ووَقَفُ الرَّجلُ عاجِزاً عَنْ فَعلِ أَيِّ شَيءٍ. فَطَلبَ إليهِ ابنَ البيطارِ، فَلَمَّا حَضَرَ طَلَبَ مِنَ الرَّجلِ أَنْ يَشُّمَ النَّبتَةَ مِنْ وجهِها الآخَرِ، فَسَكَنَ رُعافُهُ».

❋ ❋ ❋

ولا يَخفَى عَلى كُلِّ باحثٍ حَصيفٍ، أَنَّ ابنَ البيطارِ كانَ عالِماً ثَبتاً ثِقَةً وأَميناً في خِدمَةِ العِلمِ وإِفادَةِ النَّاسِ بِما أَكرَمَهُ اللهُ مِنْ مَعرِفَةٍ وعِلمٍ انتَهى إليهِ سَعيُهُ واجْتِهادُهُ.

يَذْكُرُ عنْهُ ابنُ أَبي أُصَيبعَةَ في كِتابِهِ «عيونِ الأَنباءِ في طَبقاتِ الأَطبَّاءِ» ـ وكانَ قَدِ التَقَى بِابنِ البيطارِ واجتَمَعَ مَعهُ في دِمشقَ ـ قائِلاً:

«كُنتُ أَجِدُ عَلى غَزارَةِ عِلمِهِ ودِرايَتِهِ وفَهمِهِ شَيئاً كَثيراً جِداً، وكُنتُ أُحضِرُ لَدينا بَعْضاً مِنَ الكُتُبِ المُؤلَّفَةِ في الأَدويَةَ المُفرَدَةِ مِثلِ كِتابِ ديسقوريدس وجالينوس والغافِقيِّ وأَمثالِهِم من الكُتُبِ الجَليلَةِ في هَذا الفَنِّ، فَكانَ يَذكُرُ أَوَّلاً ما قالَهُ ديسقوريدس في كِتابِهِ بِاللَّفظِ اليُونانيِّ عَلى ما قَدْ صَحَّحَهُ في بِلادِ الشَّامِ، ثُمَّ يَذكُرُ جُمَلاً مِمَّا قالَهُ ديسقوريدس مِنْ نَعتِهِ وصِفَتِهِ وأَفعالِهِ، وما يَتَعَلَّقُ بِهِ. ويَذكُرُ أَيضاً جُملاً مِنْ أَقوالِ المُتَأَخرينَ، ومَنِ اختَلَفوا فيهِ، ومَواضعَ الغَلَطِ والاشتباهِ الذَي وقَعَ لِبَعضِهِمْ في نَعتِهِ».

كَما كانَ ابنُ البيطارِ لا يَذكُرُ دواءً نافِعاً إِلَّا ويَذكُرُ في أَيِّ مَقالَةٍ هُوَ؛ في كِتابِ ديسقوريدس أو في كتابِ جالينوس.

ولَمْ يَكتَفِ بِاستخراجِ الدَّواءِ مِنِ النَّباتاتِ، وإِنَّما حَرصَ عَلى استْخراجِهِ مِنْ بَعضِ المَعادِنِ أَيضاً مِمَّا قَدْ عايَنَهُ وتَعَلَّمَهُ مِنْ أَصحابِ التَّجاربِ الَّذِينَ التَقَى بِهِمْ في رِحلاتِهِ وأَسفارِهِ العِلميَّةِ، وقَدْ كَتَبَ الكَثيرَ مِنَ المُصَنَّفاتِ والرَّسائِلِ والمَقالاتِ. ومِنْ كُتُبِهِ:

1 ـ كِتابٌ في شَرحِ الأَدويَةِ الَّتِي ذَكَرَها ديسقوريدس في كِتابِهِ.

2 ـ كِتابُ المُغني في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

3 ـ الأَفعالُ الغَريبَةُ والخَواصُّ المُفيدَةُ.

4 ـ كتابُ الجامِعِ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

5 ـ الدُّرَّةُ البَهيَّةُ في منافِعِ الأَبدانِ الإِنسانيَّةِ.

6 ـ الإِبانَةُ والإِعلامُ بِما في المِنهاجِ مِنَ الخَلَلِ والأَوهامِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ ماذا تَحَمَّلَ ابنُ البيطارِ، ولِماذا؟

2 ـ ما الَّذِي دَفَعَ ابنُ البيطارِ عَلى الرِّحلَةِ في طَلَبِ العِلمِ؟

3 ـ ماذا يُعتَبَرُ كتابُ ديسقوريدس؟

4 ـ أَينَ تَقَعُ مَدينةُ مالِقَةَ، ومَنْ بَناها، وبِماذا كانَتْ تَشتَهِرُ؟

5 ـ إِلى أَينَ كانَ يَصحَبُ ابنُ البيطارِ أُستاذَهُ ابنَ الرُّوميَّةِ، ولِمَ؟

6 ـ كيفَ عامَلَ المَلِكُ الكامِلُ ابنَ البيطارِ؟

7 ـ ماذا لَحقَ بِابنِ البيطارِ خِلالَ إِقامَتِهِ في مصرَ؟

8 ـ هَلِ اكْتَفى ابنُ البيطارِ بِاسْتِخراجِ الدَّواء مِنَ النَّباتِ، وكيفَ؟

ابنُ الرُّوميَّةِ
النَّباتِيُّ الفَقيهُ
(561 ـ 637هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ الرُّوميَّةِ نَجمٌ سَاطِعٌ عَلى صَفحاتِ تاريخِ الحَضارَةِ العَربيَّةِ الإِسلاميَّةِ، أَفادَ النَّاسَ، وقَدَّمَ مِنْ عِلمِهِ ومَعارِفِهِ لِلفِكرِ الإِنسانيِّ ما جَعَلَ اسمَهُ يَلمَعُ في سَماءِ حَضارَتِنا مَعَ كَوكَبَةِ العُلَماءِ الخالِدينَ الَّذِينَ قَدَّموا لِلبَشريَّةَ ما يَعجَزُ اللِّسانُ عَنْ وصفِهِ، وما يَشُقُّ عَلى البَيانِ حَصرُهُ مِنْ جُهودٍ وأَتعابٍ كُلّها تَصُبُّ في يَمِّ العِلمِ الَّذِي يَسعَى مِنْ أَجلِ خَيرِ النَّاسِ وسَعادَتِهِمْ.

أَقولُ: ابنُ الرُّوميَّةِ، النباتيُّ، والفَقيهُ، والمُحَدِّثُ الوَرِعُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَخشَى في اللهِ لَومَةَ لائِمٍ، جَمَعَ العِلمَ مِنْ كافَّةِ أَطرافِهِ. ونَقصِدُ العُلومَ الَّتِي كانَتْ شَائِعَةً في عَصرِهِ فيما يَخُصُّ عُلومَ الدِّينِ وعُلومَ الدُّنيا، فَكانَ لَهُ مِنها مِنْ كُلِّ فَيضٍ غَيضٌ.

أَجَل، كانَ ابنُ الرُّوميَّةِ رافِداً جَديداً في مَسيرَةِ نَماءِ العِلمِ وازْدِهارِهِ في بِلادِ الأَندَلُسِ خاصَّةً، وفي البِلادِ العَربِيَّةِ والإِسلاميَّةِ عامَّةً في ذَلِكَ الزَّمَنِ، حَيثُ كانَتْ أَخبارُ العُلَماءِ

العَرَبِ والمُسلمينَ تَجوبُ مَعَ الشَّمسِ في كافَّةِ أَنحاءِ المَعمورَةِ، حامِلَةً مَعَها نَسائِمَ النُّورِ الَّذِي أَغدَقَتْ بِهِ السَّماءُ عَلى أَهلِ الأَرضِ جَميعاً.

ابنُ الرُّوميَّةِ، هَذا الَّذِي قَسَمَ الوَقتَ في يَومِهِ أَقساماً عِدَّةً، وقتٌ لِلبَحْثِ في عِلمِ النَّباتِ ولِلتَّعَرُّفِ عَلى الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، ووَقتٌ لِلفِقهِ ورِوايَةِ الحَديثِ، ووَقتٌ لِلعَمَلِ مِنْ أَجلِ كَسبِ لُقمَةِ العَيشِ، حَتَّى إِنَّهُ في أَثناءِ عَمَلِهِ في دُكَّانِهِ، كانَ يَغْتَنِمُ لَحظاتِ خُلُوِّهِ مِنَ حَرَكَةِ البَيعِ في النَّسخِ والكِتابَةِ والتَّأْليفِ، حَتَّى إِنَّ أَميرَ الأَندَلُسِ وحاكِمَها يَتَوقَّفُ وهوَ مُعتَلياً صَهوَةَ جَوادِهِ أَمامَ دُكانِ ابن الرُّوميَّةِ، ويَرنو إِليهِ قُرابَةَ ساعَةٍ مِنَ الزَّمَنِ، وابن الرُّوميَّةِ مُنْهَمِكٌ في الكِتابَةِ لَمْ يَرفَعْ رأسَهُ، ولَمْ يُرهِبْهُ، أَو يِسْتَأْثِرِ انْتِباهَهُ وقوفُ الأَميرِ أَمامَ دُكانِهِ، فَأَحرَجَ الأَميرَ أَمامَ النَّاسِ ولَمْ يَخشَ سُلطَتَهُ أَو غَضَبَهُ عَليهِ. فَما كانَ مِنَ الأَميرِ إِلَّا أَنْ مَضَى في طَريقِهِ مَحفوفاً بِحُرَّاسِهِ بَعدَ إِدراكِهِ أَنَّ ابنَ الرُّوميَّةِ مِنْ طرازِ العُلَماءِ الَّذِينَ لا يَخشَونَ في اللهِ لَومَةَ لائِمٍ.

فَما أَحوَجَ الأُمَّةَ إِلى هَذا الطِّرازِ النَّادِرِ مِنَ العُلماءِ اليَومَ!

وهُوَ في اللَّيلِ راهِبٌ مُتَنَسِّكٌ ما بَينَ صَلاةٍ وتِلاوَةٍ ودُعاءٍ يُجاهِدُ النَّفسَ عَلى مَرضاةِ اللهِ ﷻ.

فَمَنْ هُوَ ابنُ الرُّوميَّةِ؟

❋ ❋ ❋

هُوَ أَبو العَبَّاسِ أَحمَدُ بنُ مُفرِجِ الأَندَلُسيُّ الإِشبيليُّ الأُمَويُّ الحَزميُّ الظاهِريُّ، كانَ ظاهِرِيّاً

يَتَعَصَّبُ لِمَذْهَبِ ابن حَزمٍ الظاهِريِّ الَّذِي كانَ مَذهَبَ غالبيَّةِ أَهلِ الأَندَلُسِ وبِلادِ المَغرِبِ آنَذاكَ، فَقَدْ كانَ ابنُ حَزمٍ مِنْ كبارِ أَعيانِ بِلادِ الأَندلُسِ ومِنْ أَعظَمِهِمْ عِلماً وزُهداً وورَعاً.

تَراهُ مُحَدِّثاً فَقيهاً شاعِراً طَبيباً أَديباً بَليغاً، شافِعيَّ المَذهَبِ، ولكِنَّهُ أَخذَ بِمَذهَبِ أَهلِ الظَّاهِرِ في الحَديثِ، وفي الاستدلالِ لِبناءِ الأَحكامِ الفِقهيَّةِ وتَوضيحِ مبادئ العَقيدَةِ، وأَسَّس مَذهَبَهُ الفِقهيَّ الَّذِي انتَشَرَ في كافَّةِ أَنحاءِ البِلادِ في ذَلِكَ الوَقتِ. أَمَّا اليَوم فَلَمْ يَعُدْ هُناكَ إِلَّا قِلَّةٌ قَليلَةٌ مِمَّنْ يُقَلِّدونَ مَذهَبَهُ. ولَهُ مؤلفاتٌ كَثيرَةٌ في الفِقهِ وأُصولِهِ، وفي الحَديثِ وأُصولِهِ، وفي العَقائِدِ والمِلَلِ. وقَدْ تَأَثَّرَ ابنُ الرُّوميَّةِ بِمُؤَلَّفاتِ ابنِ حَزمٍ كَثيراً، وتَعَصَّبَ لِمَذهَبِهِ أَيَّما تَعَصُّبٍ.

ولِدَ ابنُ الرُّوميَّةِ عامَ (500) هجريَّةً في مَدينَةِ إِشْبِيْلِيَّةَ ثاني أَكبَرِ مُدنِ الأَندَلسِ إِلى يَومِنا هَذا، ونَشَأَ وتَرعرَعَ فيها، ولُقِّبَ بِابنِ الرُّوميَّةِ رُبَّما لأَنَّ أُمَّهُ كانَتْ روميَّةً؛ إِذْ مِنَ البَعيدِ جِدّاً أَنْ يُلَقَّبَ بِهذا اللَّقَبِ إِنْ لَمْ تَكُنْ أُمُّهُ روميَّةً.

وتُعتَبَرُ مَدينَةُ إِشْبِيْلِيَّةَ الَّتِي ولِدَ فيها ابنُ الرُّوميَّةِ مِنْ أَقدَمِ مُدُنِ الأَنْدَلُسِ وأَهَمِّها، ومِنْ أَكثَرِها عَراقَةً وتَأْثيراً في الحياةِ العَامَّةِ في بِلادِ الأَندَلُسِ.

ويَكفي أَنَّ الاسْمَ الَّذِي يُطلَقُ عَلى بِلادِ الأَندَلُسِ اليَومَ «إِسبانيا» وهوَ تَصحيفٌ لاسمِ «إِشبانيا» الَّذِي كانَ يُطلَقُ عَليها قَديماً قَبلَ احتلالِها مِنْ قِبَلِ القُوطِ الرُّومانِ والإِغريقِ، مُشْتَقٌّ مِنْ اسمِها، وإِشْبِيْلِيَّةُ نسبَةً إِلى اسمِ بانيها وهُوَ «أَشبانُ بنُ طيطشَ».

فَقَدْ زَعَموا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ سَكَنَ بِلادَ الأَنْدَلُسِ هُمْ قَومُ إِشبانَ بنِ طيطشَ بنِ طوبيلَ بنِ

يافِثَ بنِ نوحٍ، ومِنِ اسْمِ إِشبانَ سُمِّيَتْ بلادُ الأَندَلسِ إِسبانيا، وقامَ إِشبانُ بنُ طيطشَ بِبناءِ مَدينَةِ إِشْبِيْلِيَّة وجَعَلَها عاصِمَةَ البِلادِ ومَركزَها.

ومِنْ ثمَّ غَلظَ أَمرُهُ في البِلادِ، وانتَشَرَ صيتُهُ في الآفاقِ، وتَمَكَّنَ في كُلِّ ناحيَةٍ سُلطانُهُ، وطاعَتْ لَهُ أَقاصي البِلادِ في الأَندلُسِ وما جاورَها مِنْ بُلدانٍ، ولَمَّا رأَى تَعاظُمَ سُلطانِهِ وقُوَّةَ مُلكِهِ، انطَلَقَ مِنْ إِشْبِيْلِيَّةَ وجهَّزَ حَملَةً كَبيرَةً خَرَجَتْ مِنْ سَواحِلِ الأَندَلُسِ إِلى مَدينَةِ إِيلياءَ في أَرضِ فِلَسطينَ ـ وهيَ مَدينَةُ القُدسِ حالياً ـ وكانَ اليَهودُ قَدِ اسْتَولوا عَليها، وأَقاموا فيها دولَتَهُمُ الأُولى مِن عَهدِ نَبيِّ اللَهِ داؤدَ وابْنِهِ سُلَيمانَ عليهما السلام.

ويُقالُ: إِنَّ إِشبانَ اتَّفَقَ مَعَ المَلِكِ البابليِّ نبوخذَ نَصرَ عَلى غَزوِ إِيلياءَ، فَعَمَدَ إِشبانُ وجُنودُهُ مَعَ حَليفِهِ وجنودِهِ أَيضاً عَلى تَخريبِ مَدينَةِ إِيلياءَ وتَهديمِها، وسَبى خَلقاً كَثيراً مِنَ اليَهودِ إِلى بِلادِ الأَندَلُسِ، وعَمَدَ إِلى نَقلِ رُخامِ إِيلياءَ وكنوزِها وجواهرِها ونَفائِسِها إِلى بِلادِ الأَندَلُسِ، وهوَ الَّذِي نَقَلَ مائِدَةَ سُليمانَ العَظيمَةَ الَّتِي ذَكَرناها في الجِزءِ الَّذِي تَحَدَّثنا فيهِ عَنِ ابنِ جَلجَلَ، إِلى بِلادِ الأَندَلُسِ.

وعِندَما دَخَلَ العَربُ المسلمونَ الأَندَلُسَ بَنَى الأَميرُ عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ الحَكَمِ سوراً حَجَريّاً مَنيعاً حَولَ مَدينَةِ إِشْبِيْلِيَّة، وبَنَى فيها جامعهَا الشَّهيرَ الَّذِي كانَ أَحدَ المَعالِمِ الأَثَريَّةِ الهامَّةِ في بِلادِ الأَندَلُسِ، ويُطلُّ عَلى إِشْبِيْلِيَّةَ جَبَلُ الشَّرفِ، وهوَ شَريفُ البُقعَةِ، كَريمُ التُّربَةِ، دائِمُ الخُضرَةِ، وتَنتَشرُ فيهِ بِكثرةٍ أَشجارُ الزَّيتونِ، وزَيتُهُ مِنْ أَطيَبِ وأَعذَبِ الزُّيوتِ في العالَمِ، وكانَ يُتَجَهَّزُ بِهِ إِلى الآفاقِ البَعيدَةِ بَرّاً وبَحراً.

وكانَتْ إِشْبِيْلِيَّةُ تُمَثِّلُ في ذَلِكَ الزَّمَنِ عَصَبَ الحَياةِ الاقتصاديَّةِ في بِلادِ الأَندَلُسِ، مِنها تَتَجَهَّزُ المُدنُ الأُخرى بِمُختَلَفِ السِّلَعِ الغِذائيَّةِ، وكانَ مُعظَمُ أَهلِ إِشْبِيْلِيَّة تُجَّاراً مُوسرينَ، كَما كانَت مِنْ أَهمِّ مَعاقِلِ العِلمِ والعُلماءِ في بِلادِ الأَندلُسِ في ذَلِكَ الحينِ.

❋ ❋ ❋

تَلَقَّى ابنُ الرُّوميَّةِ العِلْمَ عنْ عَلَّامَةِ الأَنْدَلُسِ «ابنِ زَرقونَ» الَّذِي كانَ أَحدَ كِبارِ أَعيانِ مَدينَةِ إِشْبِيْلِيَّةَ يَقصُدُهُ طُلَّابُ العِلمِ ومُريدوهُ مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ العَالَمِ العَربيِّ والإِسْلاميِّ، يَأْخذونَ عَنْهُ العِلمَ، ويَستَفيدونَ مِنْ تَجارِبِهِ وخبرَتِهِ فيما يَتَعَلَّقُ بِالعلومِ الشَّرعيَّةِ أَو بِعلمِ النَّباتِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ، فَهو إِلى جانبِ تفَقُّهِهِ ورِوايَتِهِ للحَديثِ ودرايَتِهِ بِرجالِهِ كانَ طَبيباً بارِعاً، ورُبَّما قَصَدَهُ المَرضَى مِنَ البُلدانِ والأَصقاعِ البَعيدَةِ. ولَكِنَّهُ تَفَرَّغَ لِلعِلمِ الشَّرعيِّ والشِّعرِ العَرَبيِّ، وأَكثَرَ مِنَ اشتِغالِهِ بِالنَّباتاتِ والأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدةِ، وقَدْ أَخذَ ابنُ عَبدونَ ـ أُستاذُ ابن الرُّوميَّةِ ـ العِلمَ عَنْ عُلماءِ عَصرِهِ في الأَندَلُسِ كَالفَقيهِ الخولانيِّ، وانتَقَلَ في صِغَرِهِ بِرَغبَةِ أَبيهِ إِلى مَراكِشَ وأَخذَ العِلمَ فيها عَنِ الإِمامِ الشَّاطِبيِّ، ثُمَّ عادَ إِلى الأَندَلُسِ ولَزِمَ الوَزيرَ ابن عَبدونَ وقَرأَ عَليهِ الشِّعرَ والفِقهَ، وكانَ ابنُ عَبدونَ مِنْ أَشعَرِ أَهلِ الأَندَلسِ وأَكتَبِهِمْ.

كَما قَرأَ ابنُ زَرقونَ عَلى القَاضي الخَطيبِ في إِشْبِيْلِيَّةَ، ولَزِمَ أَيضاً القاضي عِياضَ، وخَلَفَ بَعدَ مَوتِهِ أَموالاً طائِلَةً، وتَركَ مُصنَّفاتٍ كَثيرَةً في مُختَلَفِ العُلومِ.

وقَدْ أَخذَ عَنهُ العِلمَ كَثيرٌ مِنَ الفُقَهاءِ والقُضاةِ، ومِنهُمُ ابنُ الرُّوميَّةِ؛ أَخذَ العِلمَ عَنْ

بَعضِ عُلماءِ إِشْبِيْلِيَّةَ، وتَراسَلَ مَعَ عَالِمِ مَدينَةِ سَبتَةَ في المَغربِ عُبيدِ اللهِ القَيسي في كَثيرٍ مِنَ المَسائِلِ العِلميَّةِ، ومَرَّةً حاوَلَ ابنُ الرُّوميَّةِ اجتيازَ البَحرِ لِلقاءِ عُبيدِ اللهِ في سَبتَةَ، ولَكِنَّهُ لَمْ يُفلِحْ في لِقائِهِ.

❁ ❁ ❁

رَحلَ ابنُ الرُّوميَّةِ في سَبيلِ طَلَبِ العِلمِ وسَماعِهِ إِلى بِلادِ مِصرَ والعِراقِ والشَّامِ والحِجازِ، وأَقامَ في كُلِّ بَلدٍ مِنها فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ، وجَلسَ إِلى عُلمائِها يَتَزَوَّدُ مِنهُمْ بِالعِلمِ الشَّريفِ، كَما كانَ يَجوبُ فيها الوديانَ والجبالَ والقُرى مِنْ أَجلِ التَّعرُّفِ عَلى النَّباتاتِ والأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ في مواطِنِها.

سَمِعَ في بَغدادَ الحَديثَ عَنْ جَماعَةٍ، وسَمعَ بِدمشقَ والموصلِ مِنْ أَصحابِ الحافِظِ أَبي الوَقتِ السَّجزي، وأَبي الفَتحِ ابنِ البَطِّي، وأَبي عَبدِ اللَهِ الغَرَّاويِّ، كَما حَدَّثَ في مِصرَ الأَحاديثَ مِنْ حِفظِهِ. وقَدْ ذَكَرَ مُشاهَداتِهِ في هذِهِ الرِّحلَةِ في كِتابِهِ الَّذِي أَسماهُ «الرِّحلَةَ النَّباتيَّةَ».

ويَذكُرُ ابنُ أَبي أُصَيبعَةَ في كِتابِهِ «عُيونِ الأَنباءِ في طَبقاتِ الأَطِباءِ» أَنَّ ابنَ الرُّوميَّةِ وصَلَ سَنةَ (623) هجريَّةً إِلى الدِّيارِ المِصريَّةِ، وأَقامَ بِمصرَ والشَّامِ والعِراقِ نَحوَ سَنَتينِ، وانتَفَعَ النَّاسُ بِهِ، وأَسمَعَ الحَديثَ، وعايَنَ نَباتاً كَثيراً، وشاهَدَ أَشخاصَها في مَنابِتِها، ونَظَرَها في مَواضِعِها.

وقَدِ احْتوى كِتابُهُ «الرِّحلَةُ النَّباتيَّةُ» عَلى مُلاحَظاتٍ مُهِمَّةٍ، إِلَّا أَنهُ لَمْ يَصلْنا ـ لِلأَسفِ ـ سِوى ما ذَكَرَهُ عَنهُ ابنُ البيطارِ.

يَقولُ المُستَشرِقُ «مايرهوف» عَنْ هَذا الكِتابِ:

«لو وجَدنا بِأَيدينا كِتابَهُ الأَصلي لاسْتَطَعنا بِكُلِّ تَأْكيدٍ وضعَهُ إِلى جانِبِ الغَافِقيِّ عَلى أَنَّهُ عَالِمٌ مُستَقِلُّ المُلاحَظَةِ والتَّفكيرِ».

❋ ❋ ❋

لَقدْ كانَ ابنُ الرُّوميَّةِ عَالِماً ورعاً زَاهداً، وعَشَّاباً وطَبيباً ماهراً لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ في مَعرِفَةِ النَّباتِ والأَعشابِ، واتَّخَذَ لَهُ دُكاناً في سُوقِ إِشْبِيْلِيَّةَ لِبيعِ الأَعشابِ والأَدويَةِ النَّافِعَةِ الَّتِي يَقومُ بِتَركيبِها وصُنعِها، وعَلا صِيتُهُ وقَصَدَهُ كبارُ الأُمراءِ والأَعيانِ، وقَدْ ذَكَرتْهُ كُتُبُ التَّراجمِ ومَدَحَتهُ وأَشادَتْ بِعلمِهِ ووَرَعِهِ.

ذَكَرَهُ المقريُّ التِّلمسانيُّ في كِتابِهِ «نَفحِ الطِّيبِ» فَقالَ: حَكى بَعضُهُمْ عَنهُ أَنهُ كانَ جالِساً في دُكَّانِهِ بِإِشْبِيْلِيَّةَ يَبيعُ الحَشائِشَ ويَكتُبُ ويَنسَخُ، فَاجتازَ بِهِ الأَميرُ عبدُ اللهِ بنُ هودٍ سُلطانُ الأَندَلُسِ، فَسَلَّمَ عَليهِ، فَردَّ عَليهِ السَّلامَ، واشتَغَلَ بِنَسخِهِ، ولَمْ يَرفَعْ إِليهِ رأْسَهُ، فَبَقيَ واقِفاً يَنتَظِرُ مَتَى يَرفَعُ إِليهِ رأسَهُ سَاعَةً طَويلَةً، فَلمَّا لَمْ يَحفَلْ بِهِ ساقَ فَرَسَهُ ومَضَى.

وقالَ الشيخُ عَلمُ الدِّينِ البَرزالي في حَقِّهِ: إِنَّهُ كانَ يَعرِفُ الحَشائِشَ مَعرفَةً جَيِّدَةً، قالَ بَعضُهُمْ: اجْتَمَعتُ بِهِ وتَعارَضتُ مَعَهُ في ذِكرِ الحَشائِشِ، فَقلتُ لَهُ: قَصبُ الذَّريرَةِ قَدْ ذُكِرَ

في كُتبِ الطِّبِّ، وذَكروا أَنهُ يُستَعمَلُ مِنهُ شَيءٌ كَثيرٌ، وهَذا يَدلُّ عَلى أَنهُ كانَ مَوجوداً كَثيراً، وأَمَّا الآنَ فَلا يُوجَدُ، ولا يُخبَرُ عَنهُ بِخَبَرٍ، فَقالَ:

هوَ مَوجودٌ، وإِنما لا يَعلمونَ أَينَما يَطلبونَهُ.

فَقلتُ لَهُ: وأَينَ هُوَ؟

فَقالَ: بِالأَهوازِ، مِنهُ شَيءٌ كَثيرٌ.

وإِلى جانِبِ كتابِ الرِّحلَةِ النَّباتيَّةِ، وضعَ الكَثيرَ مِنَ المؤلفاتِ في **علمِ النَّباتِ** أَهمُّها:

ـ تَفسيرُ أَسماءِ الأَدويَةِ مِنْ كِتابِ ديسقوريدس.

ـ مَقالَةٌ في تَركيبِ الأَدويَةِ.

ـ أَدويَةُ جالينوس.

ـ الرِّحلَةُ المُستَدرَكَةُ.

أَمّا في **عِلمِ الحَديثِ** فَمنْ أَشهرِ مؤلفاتِهِ فيهِ:

ـ الحافِلُ في تكمِلَةِ الكامِلِ لابنِ عَدِيٍّ.

ـ مُختَصَرُ كِتابِ الدَّارقطنيِّ في غَريبِ الحَديثِ.

تُوفيَ ابنُ الرُّوميَّةِ في إِشْبِيْلِيَّةَ سَنَةَ (637) هجريَّةً ودُفِنَ فيها، ومِنْ تلامِذَتِهِ ابنُ البيطارِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا كانَ يَغتَنِمُ ابنُ الرُّوميَّةِ لَحظاتِ فَراغِهِ في دُكَّانِهِ؟

2 ـ بِماذا أَخذَ الإِمامُ ابن حَزمٍ؟

3 ـ ما سَبَبُ تَسميَةِ بِلادِ الأَندلُسِ إِسبانيا؟

4 ـ ما هيَ أَعمالُ عَبدِ الرَّحمَنِ بنِ الحَكَمِ في مَدينَةِ إِشْبِيْلِيَّةَ؟

5 ـ ماذا كانتْ تُمَثِّلُ مَدينَةُ إِشْبِيْلِيَّةَ لِبلادِ الأَندلُسِ؟

6 ـ مَنْ هوَ ابنُ زَرقون؟

7 ـ ما هيَ أَهَمُّ مُؤلفاتِ ابنِ الرُّوميَّةِ في عِلمِ النَّباتِ؟

8 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤلفاتِ ابنِ الرُّوميَّةِ في عِلمِ الحَديثِ؟

ابنُ وافِدٍ
النَّباتيُّ الوَزيرُ
(387 ـ 467هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ وافِدٍ، العَالمُ العَرَبيُّ الأَندَلُسيُّ، الَّذِي بارَكَ اللهُ لَهُ في عُمرِهِ وعِلمِهِ وجَعلَ لَهُ ذِكراً حَسناً، ومَقاماً مَحموداً بَينَ أَقرانِهِ في الدُّنيا بِفضلِ عِلمِهِ ومَعرِفَتِهِ، بَلَغَ مِنَ العِلمِ والمَعرِفَةِ ما جَعَلَ عُلماءَ عَصرِهِ في عِلمِ النَّباتِ يَشهَدونَ لَهُ بِعلوِّ كَعبِهِ عَليهِمْ في مَعرِفَةِ النَّباتاتِ وتَركيبِ الأَدْويَةِ المُفرَدَةِ، وعِلاجِ الأَمراضِ المُختَلِفَةِ.

وأَيضاً، بِمَعرِفَتِهِ في الفِقهِ وقَضاياهُ ومَسائِلِهِ ما دَفَعَ أَميرَ طَلَيطلَةَ يَختارُهُ لِيَكونَ وزيراً وسَنداً لَهُ في إِدارَةِ البِلادِ، وسِياسَةِ العِبادِ، ولِيَكونَ مُستشارَهُ الأَوَّلَ في أُمورِ العُمرانِ، وفي إِنشاءِ المَرافِقِ العَامَّةِ في طُلَيطِلَةَ والبِلادِ الَّتِي انْضَوَتْ تَحتَ حُكمِهِ.

ابنُ وَافِدٍ، النَّباتيُّ والعَشَّابُ، والفَقيهُ والفَيلسوفُ، والطَّبيبُ والوَزيرُ، بَلَغَ شَأْواً عَظيماً في مَعرِفَةِ العَقاقيرِ، وتَركيبِ الأَدويَةِ المُفرَدةِ، والعِلمِ بِالفِلاحَةِ ووجوهِها، حَتَّى شَهِدَ لَهُ رائِدُ البَحثِ العِلميِّ في عِلمِ النَّباتِ «ابنَ جَلْجَلَ» بِالتَّفوقِ والخبرَةِ عَلى كُلِّ العُلماءِ

والأَطبَّاءِ الَّذِينَ كانوا قَبلَهُ، وكَذَلِكَ الَّذِينَ أَتَوا بَعدَهُ، بَلْ إِنَّهُ سَبَقَ أُستاذَهُ الطَّبيبَ الزَّهراويَّ المَعروفَ بَينَ عُلماءِ النَّباتِ والطِّبِّ العَرَبِ خِبرَةً وتَصنيفاً وبَحثاً وتَطبيقاً.

ويَكفي ابن وافِدٍ فَخراً أَنهُ أَشرَفَ عَلى بِناءِ قَصرِ طُليطلَةَ الَّذِي بَناهُ أَميرُ طُليطلَةَ وحاكِمُها الَّذِي ما يزالُ إِلى اليَومِ أَثراً خالِداً مِنَ الآثَارِ العمرانيَّةِ لِلعَربِ في بِلادِ الأَندَلُسِ، وأَنَّهُ أَنشَأَ حَديقَةَ طُلَيطلَةَ الَّتِي تَغَنَّى بِها الشُّعراءُ كَثيراً، وقَصدَ رُؤيَتَها القَاصي والدَّاني.

فَمَنْ هُوَ ابنُ وافِدٍ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو المطرفِ عَبدُ الرَّحمنِ بنُ مُحمَّدٍ بنِ مُهنَّدٍ بنِ عَبدِ الكَبيرِ بنِ يَحيَى بنِ وَافِدٍ الطُّلَيطليُّ اللَّخميُّ، ولِدَ في طُلَيطلَةَ سَنَةَ (387) هجريَّةً، عاشَ ثَمانينَ سَنَةً، وتُوفيَ سَنةَ (467) هجريَّةً، ودُفنَ في طُلَيطلَةَ.

وهوَ عَربِيٌّ لَخميٌّ، دَخَلَ أَجدادُهُ في جُملَةِ أَجنادِ العِراقِ والشَّامِ في جَيشِ موسَى بنِ نُصيرٍ إِلى بِلادِ الأَندلُسِ، وسَكنوا طُليطِلَةَ واستَوطَنوا فيها.

فَنَسَبُهُ يَعودُ إِلى بَني لَخمٍ الَّذِينَ كانَ مِنهُمُ الصَّحابِيُّ الجَليلُ «تَميمٌ الدَّاريُّ» رضي الله عنه، والَّذِينَ سَكنوا الحيرَةَ في العِراقِ قَديماً ومَلكوها زهاءَ خَمسمئة سَنَةٍ. ويَعود نَسَبُ بَني لَخمٍ في سِلسِلَةِ أَنسابِ العَربِ إِلى الحارِثِ بنِ عديٍّ، الَّذِي لَخَمَ[1] وجهَ أَخيهِ جُذامٍ فَسُمِّيَ لَخْماً.

(1) لخمه: لَطَمَهُ وقَطَعَ مِنهُ لَحماً.

وكانَ أَوَّلُ مُلوكِ بَني لَخْم في الحيرَةِ عَمرو بنَ عَديِّ بنِ لَخْم، مَلَكَ الحيرَةَ بَعدَ خالِهِ جُزيمَةَ. وقَدْ عَمَّرَ طَويلاً وحَكَمَ الحيرَةَ (118) سَنَةً، وآخِرُهُمُ المَلِكُ النَّعمانُ بنُ المُنذِرِ.

كَما كانَ مِنْ بَني لَخْم، بَنو عَبَّادٍ الَّذِينَ حَكموا الأَندلُسَ، واشتَهَرَ مِنهُمُ الأَميرُ المُعتَمِدُ بنُ عَبَّادٍ، والوَزيرُ الصَّاحِبُ بنُ عَبَّادٍ.

ومُنذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ، اهتَمَّ ابنُ وافِدٍ بَحفظِ القُرآنِ الكَريمِ، وبِمُطالَعَةِ كُتُبِ الفِقهِ والفَلسَفَةِ وعِلمِ النَّباتِ، واهْتَمَّ بِشَكلٍ خاصٍّ بِقِراءَةِ كِتابِ ديسقوريدس ومُؤَلَّفاتِ الطَّبيبِ اليُّونانيِّ القَديمِ جالينوس، وتَرَدَّدَ عَلى مَجالِسِ العِلمِ في جامِعِ طُلَيطلَةَ وسَمعَ مِنْ شُيوخِها ومُحَدِّثيها، وتَعَرَّفَ عَلى عَالِمِ النَّباتِ الطَّبيبِ الزَّهراويِّ.

❋ ❋ ❋

اسْتَفادَ ابنُ وافِدٍ مِنْ صُحبَتِهِ لِأُستاذِهِ الزَّهراويِّ، ومِنْ خروجِهِ مَعَهُ إلى الأَريافِ والجِبالِ لِمُعايَنَةِ النَباتاتِ والأَعشابِ، ولِمَعرِفَةِ خَواصِّها العِلاجيَّةِ في العِلَلِ والأَمراضِ.

فَكانَ الزَّهراويُّ طَبيباً فاضِلاً مُتقِناً لِلحِكمَةِ ولِلعلومِ الرِّياضيَّةِ، مُتَميِّزاً في صِناعَةِ الطِّبِّ، ولَهُ التَّصانيفُ العَديدَةُ، مِنها:

- اختِصارُ الحاوي في الطِّبِّ لِلرازيِّ.
- وكِتابُ الخَواصِّ الطِّبيَّةِ المُنتَزَعَةِ مِنْ كُتبِ ديسقوريدس وجالينوس.

سارَ ابنُ وافِدٍ عَلى خُطَى أُستاذِهِ، واتَّبَعَ مَنْهَجَهُ في شَرحِ الأَدويَةِ المُفرَدةِ، وأبدَع في

تَركيبِ الأَدويَةِ النافِعَةِ. وكانَ لَهُ أُسلوبُهُ في عِلاجِ الأَمراضِ الَّذِي يَقومُ عَلى الغِذاءِ أَولاً قَبلَ وصفِ الدَّواءِ الَّذِي رُبَّما كانَ لَهُ تَأثيرُهُ السَّلبيُّ عَلى المَريضِ.

يَقولُ عَنهُ المقريُّ التِّلمَسانيُّ في كِتابِهِ «نَفحِ الطِّيبِ»:

«وَكانَ الوَزيرُ أَبو المطرفِ عبدُ الرَّحمنِ بنُ مُهَنَّدٍ مُصَنِّفُ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ آيَةَ اللهِ تَعالى في الطِّبِّ وغَيرِهِ، حَتَّى إِنَّهُ عايَنَ جَميعَ ما في كِتابِهِ مِنَ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، وعَرفَ تَركيبَ قواها ودَرجاتِها، وكانَ لا يَرى التَّداوي بِالأَدويَةِ ما أَمكَنَ التَّداوي بِالأَغذِيَةِ أَو يَقربُ مِنها، وإِذا اضطَرَّ إِلى الأَدويَةِ فَلا يَرى التَّداوي إِلى المُرَكَّبَةِ ما وجَدَ سَبيلاً إِلى المُفرَدَةِ، وإِذا اضطَرَّ إِلى المُركَّبَةِ لا يُكثِرِ التَّركيبَ، بَلْ يَقتَصِرُ عَلى أَقَلّ ما يُمكِنُهُ، ولَهُ غَرائِبُ مَشهورَةٌ في الإِبراءِ مِنَ الأَمراضِ الصَّعبَةِ والعِلَلِ المُخَوِّفَةِ بِأَيسَرِ عِلاجٍ وأَقرَبِهِ».

ويَقولُ عَنهُ الصَّفَديُّ في كِتابِهِ «الوافي بِالوَفياتِ»:

«الوَزيرُ أَبو مطرِفٍ اللَّخميُّ، أَحدُ أَشرافِ الأَندلُسِ، وذَوو السَّلَفِ الصَّالِحِ والسَّابِقَةِ القَديمَةِ، عُنيَ عِنايَةً فائِقَةً بِقراءَةِ كُتُبِ جالينوس وتَفَهَّمَها، ومُطالَعَةِ كُتُبِ أَرسطاليس وغَيرِهِ مِنَ الحُكماءِ، ومَهرَ في عِلمِ الأَدويَةِ، وجَمَعَ فيهِ كِتاباً جَليلاً لا نَظيرَ لَهُ في حُسنِ التَّرتيبِ، جَمَعَهُ في عِشرينَ سَنَةً، ولَهُ في الطِّبِّ مَنزعٌ لَطيفٌ، ومَذهَبٌ نَبيلٌ، كانَ لا يَرى التَّداوي بِالأَدويَةِ ما أَمكَنَ التَّداوي بِالأَغذيَةِ أَو كانَ قَريباً مِنها، فَإِنْ دَعَتِ الضَّرورَةُ إِلى الدَّواءِ لا يَراهُ بِالمُرَكَّبِ، فَإِنِ اضطَرَّ إِلى المُرَكَّبِ لَمْ يَرَهُ بِما كَثُرَ تَركيبُهُ، ولَهُ نوادِرُ مَحفوظَةٌ، وغَرائِبُ مَشهودَةٌ في الإِبراءِ مِنَ العِلَلِ الصَّعبَةِ، والأَمراضِ المُخيفَةِ بِأَيسَرِ عِلاجٍ».

❁ ❁ ❁

دَرَسَ ابنُ وافِدٍ كُتُبَ ديسقوريدس وجالينوس، وذَكَرَ ابنُ جَلجَلَ في أَحدِ كُتُبِهِ أَنَّ ابنَ وافِدٍ قَدْ أَجادَ في كِتابِهِ عَنِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ مِمَّا يُعَدُّ إِسهاماً مُفيداً لِطُلابِ الطِّبِّ والعقاقيرِ.

ويُشيرُ مُعاصِرُهُ ابنُ صاعِدٍ الأَندَلُسي في كِتابِهِ «طَبقاتِ الأُمَمِ» إِلى أَنَّ ابنَ وافِدٍ «عنيَ عِنايَةً فائِقَةً بِقراءَةِ كُتبِ جالينوس، وتَفَهَّمَها، ومُطالَعَةِ كُتبِ أَرسطوطاليس وغيرِهِ مِنَ الفَلاسِفَةِ، وتَمَهَّرَ في عُلومِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ حَتَّى ضَبَطَ مِنها ما لَمْ يَضبطْهُ أَحدٌ في عَصرِهِ، وأَلَّفَ فيها كِتاباً جَليلاً لا نَظيرَ لَهُ جَمَعَ فيهِ ما تَضَمَّنَهُ كِتابُ ديسقوريدس، وكتابُ جالينوس المُؤلفانِ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، ورَتَّبَهُ أَحسَنَ تَرتيبٍ، وهوَ مُشتَملٌ عَلى خَمسمئَةِ ورَقَةٍ.

وأَخبَرني أَنهُ عانى جَمعَهُ وحاوَلَ تَرتيبَهُ، وتَصحيحَ ما ضَمنَهُ مِنْ أَسماءِ الأَدويَةِ وصِفاتِها وأَودَعَهُ إِيـَّاهُ مِنْ تَفصيلِ فَحواها، وتَحديدِ دَرجاتِها مِنْ عِشرينَ سَنَة حَتَّى كَملَ مُحَقِّقاً لِغَرَضِهِ، مُطابِقاً لِبُغيَتِهِ».

ولابنِ وافِدٍ كِتابٌ في تَراجِمِ الرِّجالِ الَّذِينَ لَقيَهُمْ، أَشارَ إِليهِ «ابنُ بَشكوالَ» في كِتابِهِ «الصِّلَةِ في تاريخِ أَئِمَّةِ الأَندَلسِ» وذَكَرَ طَرفاً مِنْ كَلامِ ابن وافدٍ فيهِ، دَلَّ كلامُ ابن وافِدٍ عَلى حَصافَةِ فِكرِهِ الشُّموليِّ، وعَلى تَوَخيهِ الدِّقَةَ العِلميَةَ في الوَصفِ والتَّحقيقِ، فَفي مَعرضِ حَديثِهِ عَنِ العالِمِ ابن زُهرٍ الإِياديِّ يَقولُ ابن بَشكوالَ:

«وذَكَرهُ أَبو المُطرفِ عبدُ الرَّحمَنِ بنُ مُحَمَّدٍ الطُلَيطليُّ في تَسميَةِ رِجالِهِ الَّذِينَ لَقيَهُمْ، فَقالَ: أَبو بَكرٍ مُحَمَّدُ بنُ مَروانَ بنِ زُهرٍ الإِياديُّ الإِشبيليُّ، قَدمَ عَلينا مِنْ إِشْبِيْلِيَّةَ سَنَةَ تِسعَ

عَشرَةَ وأَربَعمئَةٍ، وكانَ شَيخاً وسيماً فاضِلاً عَالِماً بِالمَسائِلِ والآثَارِ، مُتَفَنِّناً في العُلومِ وقَديراً أَصيلاً، يَألَمُ في جُلوسِهِ. فَقيلَ لَهُ في ذَلِكَ، فَأَنشأَ يَقولُ:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ ومَنْ يَعِشْ ثَمانينَ حَولاً لا أَبا لكَ يَسأَم

❋ ❋ ❋

لَقيَ ابنُ وافِدٍ مِنَ المَأمونِ بنِ ذي النُّونِ أَميرِ طُلَيطلَةَ كُلَّ تَقديرٍ واحتِرامٍ؛ لأَنَّ ابنَ وافِدٍ كانَ مِنْ كِبارِ أَعيانِ طُليطلَةَ ومِنَ الأَثرياءِ الَّذِينَ ورثوا الوَجاهَةَ والمالَ، وفَوقَ هَذا وذاكَ كانَ عالِماً خَبيراً وفَقيهاً مُحَنَّكاً، وطَبيباً مُجَرَّباً، فَاختارَهُ المَأمونُ لِيَكونَ وزيراً لَهُ ومُعيناً في تَحمُّلِ أَعباءِ الإِمارَةِ، وعَهدَ إِليهِ القِيامَ بِإِنشاءِ حَدائِق طُلَيطلَةَ والإِشرافَ على بِناءِ قَصرِهِ البَديعِ والمَنيفِ الَّذِي كانَ أُعجوبَةً عُمرانيَّةً مِنْ عَجائِبِ العَربِ في بِلادِ الأَندلُسِ.

كانَ المَأمونُ بنُ ذي النُّونِ أَميراً مُسرِفاً يُحبُّ الأُبَّهَةَ واللَّهوَ والسَّمَرَ، وكانَ يُنادِمُ الشُّعراءَ، ويُغدِقُ عَليهِمُ الأَموالَ والأُعطياتِ حَتَّى مَدحَهُ أَحدُ الشُّعراءِ فَقالَ:

دَعوا المُلوكَ وأَبناءَ المُلوكِ فَمَنْ أَضحَى عَلى البَحرِ لَمْ يَشتَقْ إِلى نَهرِ

ما في البَسيطَةِ كَالمَأمونِ ذي كَرَمٍ فَانظُرْ لِتَصديقِ بِما أُسمِعتَ مِنْ خَبَرِ

وذَكَرَ المقريُّ التِّلمسانيُّ في كِتابِهِ «نَفحِ الطِّيبِ» عَنِ المَأمونِ القِصَّةَ التَّاليَةَ:

«وحَكى ابنُ بَدرونَ في شَرحِ العَبدونيَّةِ، أَنَّ المَأمونَ بنَ ذي النُّونِ صاحِبَ طُلَيطِلَةَ، بَنى قَصراً فيها تَأَنَّقَ في بِنائِهِ وأَنفَقَ فيهِ مالاً كَثيراً، وصَنَعَ فيهِ بُحيرَةً، وبَنى في وسطِها قُبَّةً، وسيقَ الماءُ إِلى رأسِ القُبَّةِ عَلى تَدبيرٍ أَحكَمهُ المُهندسونَ، فَكانَ الماءُ يَنزلُ مِنْ أَعلى القُبَّةِ

حَواليَها مُحيطاً بِها مُتَّصلاً بَعضُهُ بِبَعضٍ، فَكانَتِ القُبَّةُ في غُلالَةٍ مِنْ ماءٍ سَكبٍ لا يَفْتَرُ. والمَأْمونُ بنُ ذي النُّونِ قاعِدٌ فيها لا يَمَسُّهُ مِنَ الماءِ شَيءٌ.

ولَو شاءَ أَنْ يُشعِلَ فيها الشَّمعَ لَفَعَلَ، فَبينَما هوَ فيها إذْ سَمعَ مُنشِداً يُنشِدُ:

أَتَبني بِناءَ الخالِدينَ وإِنما ... بَقاؤُكَ فيها لو عَلِمتَ قَليلُ

لَقَدْ كانَ في ظِلِّ الأَرائِكِ كِفايَةٌ ... لِمَنْ كُلُّ يَومٍ يَعتَريهِ رَحيلُ

فَلَمْ يَلبَثِ المَأمونُ بَعدَها إِلَّا قَليلاً حَتَّى قَضَى نَحبَهُ.

تَولَّى ابنُ وافِدٍ غَرسَ حَديقَةِ وجَنَّةِ المَأمونِ في طُليطلَةَ بِالأَغراسِ والنَّباتاتِ العَجيبَةِ والجَميلَةِ الَّتي تَمَّ جَلبُها مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ الأَندَلُسِ ومِنَ البُلدانِ البَعيدَةِ، فَكانَتْ هَذهِ الحَديقَةُ آيَةً في الجَمالِ والرَّوعَةِ، وقَصَدَ رؤيَتَها الأُمراءُ والمُلوكُ والعَامَّةُ مِنْ سائِرِ أَنحاءِ المَعمورَةِ، وكانَتْ أَهَمَّ مَعلَمٍ سِياحيٍّ في بِلادِ الأَندلُسِ كُلِّها، وتَغَنَّى في روعَتِها وبَهائِها الشُّعراءُ، وتَحَدَّثَ بِعجائِبِها الرُّكبانُ، والفَضلُ في كُلِّ ذَلِكَ لابن وافِدٍ.

وكَمثالٍ نَذكُرُ ما قالَهُ أَحدُ الشُّعراءِ في وصفِها:

يا مَنظَراً إِنْ نَظَرتُ بَهجَتَهُ ... أَذْكَرَني حُسنَ جَنَّةِ الخُلدِ

تَراهُ يَزهو إِذا يَحلُّ بِهِ ... المَأمونُ زَهوَ الفَتاةِ بِالعقدِ

كَأَنما أُلبِسَتْ حَدائِقُهُ ... ما حازَ مِنْ شِيمَةٍ ومِنْ مَجدِ

كَأَنما جادَها وأَمطَرَها ... بِوابِلٍ مِنْ يَمينِهِ رَغَدِ

ولابنِ وافِدٍ كِتابٌ مُهِمٌّ في عِلمِ الفِلاحَةِ أَشارَ إِليهِ المُصَنِّفونَ والمُؤرِّخونَ، ولَكِنَّهُ لَمْ

يُعثَرْ عَليهِ بَعدُ، وقَدْ أشارَ بَعضُ المُستَشرقينَ الَّذِينَ دَرَسوا تاريخَ ابن وافدٍ إِلى أَنَّ الكِتابَ المَوجودَ حالياً في مَكتَبَةِ كاتدرائيَّةِ طُليطلَةَ والمُتَرجَمَ إِلى اللُّغَةِ القَشتاليَّةِ رُبَّما كانَ هوَ نَفسُهُ لابن وافدٍ في عِلمِ الفِلاحَةِ، وَقَدْ نُسِبَ لِغَيْرِهِ.

أَمَّا مُؤلفاتُ ابن وافِدٍ فَهيَ:

1 ـ كِتابُ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

2 ـ كِتابُ المُجَرَّباتِ في الطِّبِّ.

3 ـ كِتابُ تَدقيقِ النَّظَرِ في حاسَّةِ البَصَرِ.

4 ـ كِتابُ الغَيثِ.

5 ـ كِتابُ الوسادِ في الطِّبِّ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ كيفَ وصَفَ ابنُ جَلْجَلَ ابنَ وافِدٍ؟

2 ـ إِلى مَنْ يَنتَسِبُ بَني لَخمٍ، ومَنْ أَوَّلُ وآخِرُ مُلوكِهِمْ في الحيرَةِ؟

3 ـ عَلى ماذا أَشرَفَ ابنُ وافِدٍ؟

4 ـ لِماذا اختارَ المَأمونُ ابنَ وافِدٍ وزيراً لَهُ؟

5 ـ ما هِيَ أَهمُّ صِفاتِ المَأمونِ بنِ ذي النُّونِ؟

6 ـ ما هيَ الكُتبُ الَّتِي قَرأَها ابنُ وافِدٍ، وكيفَ اسْتفادَ مِنها؟

7 ـ كيفَ كانَ أُسلوبُ ابنِ وافِدٍ في عِلاجِ الأَمراضِ؟

8 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤلَّفاتِ ابنِ وافِدٍ؟

أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ
النَّباتيُّ، واللُّغويُّ الحاذِقُ
(212 ـ 282هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ، النَّباتيُّ واللُّغَويُّ الحاذِقُ، والمُفَسِّرُ الفَهيمُ، والمُتَكَلِّمُ المُجيدُ لِفنونِ الكَلامِ وأُصولِ البَيانِ، واحِدٌ مِن عُلماءِ العَربِ والإِسلامِ الَّذِينَ أَحاطوا بِالعِلمِ مِنْ كُلِّ جَوانِبِهِ، فَكانَ لَهُ مِنْ كُلِّ بَساتينِ العِلمِ زَهرةٌ، ومِنْ كُلِّ فَنٍّ مِنهُ قَدَمٌ وساقٌ، فَلا يَخلو كِتابٌ في عِلمِ النَّباتِ مِمَّا صَنَّفَهُ عُلماءُ النَّباتِ بَعدَهُ، كَما لا يَخلو مُعجَمٌ في اللُّغَةِ، أو كِتابٌ في شَرحِ الحَديثِ النَّبويِّ أَو في شَرحِ أَشعارِ العَرَبِ إِلَّا وتَجِدُ في طَيَّاتِهِ قولاً أَو شَرحاً أو بَياناً لِأَبي حَنيفَةَ الدَّينوري.

كانَ أَبو حَنيفَةَ حُجَّةً في اللُّغَةِ، كَما كانَ حُجَّةً في عِلمِ النَّباتِ والهَندَسَةِ الزِّراعيَّةِ، وبَلَغَ في سِعَةِ عِلمِهِ وغَزارَةِ مَعارِفِهِ مَبلَغاً عَظيماً مِنَ الوَجاهَةِ بينَ عُلماءِ العَربِ المَوسوعيينَ؛ الَّذِينَ يُعَتبرونَ مِنَ المَراجِعِ والمَصادرِ الهامَّةِ في اللُّغَةِ والبيانِ، وفي عِلمِ النَّباتِ والفِلاحَةِ.

وعَلى الرَّغمِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، نَرى المُؤَرخينَ قَدْ أَجحَفوا وقَصَّروا في حَقِّهِ كَثيراً، فَلَمْ

تَذكُرْ كُتُبُ التَّراجمِ والرِّجالِ إِلَّا نَزْراً قَليلاً عَنْ حَياتِهِ ورِحلاتِهِ وتَنَقُّلاتِهِ ومُحاوراتِهِ، ورُبَّما كانَ هَذا التَّقصيرُ مِنَ المُؤرخينَ في حَقِّهِ مُتَعَمَّداً ومَقصوداً، أَو رُبَّما كانَ بِإِيعازٍ مِنَ السُّلطَةِ السِّياسيَّةِ الحَاكِمَةِ في عَصرِهِ، خَاصَّةً إِذا عَلمنا أَنَّ أَبا حَنيفَةَ الدَّينوري كانَ تِلميذاً لِابنِ السُّكيتِ الَّذِي عَملَ مُعَلِّماً ومُؤَدِّباً لأَبناءِ الخَليفَةِ العَباسيِّ المُتَوَكِّلِ، وقَدْ ذَكَرَ بَعضُ المُؤرخينَ أَنْ عَلاقَتَهُ ساءَتْ مَعَ الخَليفَةِ، وأَنَّ المُتَوَكِّلَ قَدْ نالَهُ بِشَيءٍ، فَماتَ ابنُ السُّكيتِ أُستاذُ أَبي حَنيفَةَ الدَّينوريِّ عَلى إِ ثرِ ذَلِكَ فَوراً.

ومَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَشادَتْ بِعلمِ أبي حَنيفَةَ الدَّينوريِّ، وبِفَضلِهِ عَلى أَبناءِ عَصرِهِ المَصادِرُ والمَراجِعُ التَّاريخيَّةُ الَّتِي ذَكَرَتْهُ.

فَمَنْ هُوَ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ؟

❁ ❁ ❁

هوَ أحمَدُ بنُ داؤدَ بنِ ونندَ الدَّينوريُّ، ولُقِّبَ بِأَبي حَنيفَةَ. ولِدَ في مَدينَةِ دَينورَ الواقِعَةِ عَلى مَقربَةٍ مِنْ مَدينَةِ أَصبهان مِنْ بِلادِ خُرَّاسان (إِيران حَالياً)، ثُمَّ بَعدَ نُضوجِهِ انتَقَلَ لِلإِقامَةِ في مَدينَةِ بَغدادَ في العِراقِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الخِلافَةِ الإِسلاميَّةِ، ومعقَلَ العِلمِ والعُلماءِ في ذَلِكَ الوَقتِ.

وهوَ عَربيُّ النَّسَبِ؛ لأنَّ كَثيراً مِنَ العَرَبِ نَزَحوا مِنَ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ ومِنَ العِراقِ إِلى بِلادِ خُرَّاسانَ واسْتَوطَنوا فيها بَعدَ الفَتحِ الإِسلامي لِتلكَ البِلادِ، وأَيضاً في عَصرِ الفِتَنِ

السيَاسيَّةِ مَعَ بِدايَةِ الحكمِ الأُمويِّ، والحكمِ العَباسيِّ، وقَدْ فُتِحَتْ مَدينَةُ دَينور عَلى يَد الصَّحابيِّ الجَليلِ أَبي موسَى الأَشعريِّ رضي الله عنه.

وفي بَغدادَ بَدأَ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ رِحلَتَهُ العِلميَّةَ مُتَنَقِّلاً بينَ عُلمائِها وفُقهائِها، يَقطِفُ رَياحينَ العِلمِ والمَعرِفَةِ مِنْ كُلِّ دَوحَةٍ يَمرُّ بِها، ومِنْ كُلِّ ناشِرِ عِطرٍ أَقامَ في مَجلِسِهِ أَو سَمعَ مِنهُ، حَتَّى اسْتَقَرَّ بِهِ السَّعيُ في مَجلسِ أَحدِ العُلماءِ الكِبارِ والمَعروفينَ في عَصرِهِ، أَلا وهوَ العالِمُ الكَبيرُ ابنُ السُّكيتِ.

كانَ أَبو يوسفَ يَعقوبُ بنُ إِسحاقَ المُلقَّبُ بِابنِ السّكيتِ مُؤدباً لِوَلَدِ المُتَوكِّلِ، وكانَ عالِماً بِنَحوِ الكُوفيينَ وعِلمِ القُرآنِ واللُّغَةِ والشِّعرِ، راويَةً ثِقَةً، ولَهُ كُتُبٌ في عِلمِ النَّحوِ واللُّغَةِ، وفي مَعاني الشِّعرِ. وفَسَّرَ مِنْ دواوينِ الشِّعرِ شَيئاً كَثيراً، وتُوفيَ سَنَةَ (246) هجريَّةً، وقيلَ: إِنَّ المُتَوكِّلَ نالَهُ بِشَيءٍ حَتَّى قُتِلَ.

ولَقَدْ تَأَثَّرَ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ بِمُعلِّمِهِ وأُستاذِهِ ابن السُّكيتِ وبِمَذهَبِهِ في اللُّغَةِ كَثيراً، كما كانَ وفيّاً لَهُ ومُشيداً بِعلمِهِ وبِفَضلِهِ عَليهِ، فَفي كَثيرٍ مِنَ الأَحيانِ يَقولُ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ: «ذَكَرَ شَيخُنا كَذا، أَو قالَ كَذا» وهوَ يَتَكلَّمُ في مَسأَلَةٍ لُغَويَةٍ ما.

ثُمَّ اهْتَمَّ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ بِعلمِ النَّباتِ والحَشائِشِ والأَعشابِ بَعدَ وفاةِ أُستاذِهِ ابنِ السّكيتِ، وبدأَ يَجوبُ البلدانَ والأَصقاعَ لأَجلِ هَذِهِ الغايَةِ ولِمُعايَنَةِ النَّباتاتِ المُختَلفَةِ، والتَّعرفِ عَليها في منابِتِها.

❁ ❁ ❁

اعتَنى الدَّينوريُّ بِعلومِ اللُّغَةِ، وعلمِ الحَديثِ والتَّفسيرِ، وعِلمِ النَّباتِ حَتَّى أَصبَحَ حُجَّةً فيها يُستَشهَدُ بِقَولِهِ، ويُؤخَذُ بِإِشارَتِهِ فيها.

ذَكَرَهُ البَغداديُّ في كِتابِهِ «خزانةِ الأَدبِ» فَقالَ:

«أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ أَخذَ عَنِ البَصريِّينَ والكوفيِّينَ، وأَكثَرُ أَخذِهِ عَنِ ابنِ السِّكيتِ، وكانَ نحويّاً لُغَويّاً مُهَندِساً مُنَجِّماً حَاسِباً راويَةً ثِقَةً فيما يَرويهِ ويَحكيهِ، حتَّى إِنَّ علماءَ اللُّغَةِ كانوا يَحتَكمونَ إِليهِ فيما اختلَفوا فيهِ في أُمورِ اللُّغَةِ ويَنزلونَ عِندَ قَولِهِ ورأَيِهِ».

يَقولُ «المعافي بنُ زَكريا» في كِتابِهِ «الجَليسِ الصَّالِحِ الكافي والأنيسِ النَّاصِحِ الشَّافي» في معرضِ حَديثِهِ عَنْ لغدَةَ الأَصبَهانيِّ الَّذِي أَلَّفَ كِتاباً في تَخطِئَةِ فُحولِ الشُّعراءِ العَربِ القُدامى كامرئِ القَيسِ، وزُهيرِ بنِ أَبي سُلْمَى والنَّابِغَةِ الجَعديِّ والأَعْشَى:

«ثُمَّ رأَيتُ أَبا حَنيفَةَ أَحمَدَ بنَ داؤدَ الدَّينوري، قَدْ صَمَدَ (أي: تَصدَّى) لِكِتابِ لَغدَةَ هَذا، فَنَقَضَهُ وأَوردَ أَشياءَ صَحيحَةً تُنبِئُ عن إِغفالِهِ وضعفِ تأملِّهِ».

وقالَ ياقوتُ الحَمويُّ في كتابِهِ «مُعجَمِ الأَدباءِ» مُدَلِّلاً عَلى مَكانَةِ الدَّينوريِّ بينَ عُلماءِ العَرَبِ:

«قالَ أَبو حَيانَ التَّوحيديُّ في كِتابِهِ «تَقريظِ الجاحِظِ»: ومِنْ خَطِّهِ الَّذِي لا أَرتابُ بِهِ نَقَلتُ: قالَ (يَعني التَّوحيدي): قُلتُ لأَبي مُحَمَّدٍ الأَندَلُسيِّ ـ وكانَ مِنْ عَدادِ أَصحابِ السِّيرافيِّ ـ:

قَدِ اختَلَفَ أَصحابُنا في مَجلسِ أَبي سَعيدٍ السِّيرافيِّ في بَلاغَةِ الجاحِظِ، وأَبي حَنيفَةَ صاحِبِ النَّباتِ، ووَقَعَ الرِّضا بِحُكمِكَ، فَما تَقولُ؟

قالَ: أَنا أُحَقِّرُ نَفسي عَنِ الحُكمِ لَهُما وعَليهِما.

فَقيلَ: لا بُدَّ مِنْ قَولٍ.

قالَ: أَبو حَنيفَةَ أَكثَرُ بَداوَةً، وأَبو عُثمانَ (يَعني الجاحِظَ) أَكثَرُ حَلاوَةً، ومَعاني أَبي عُثمانَ لائِطَةٌ في النَّفسِ سَهلَةٌ في السَّمعِ، ومعاني أَبي حَنيفَةَ أَغربُ وأَعذَبُ وأَدخَلُ في أَساليبِ العَربِ.

قالَ أَبو حَيَّانَ: الَّذِي أَقولُهُ وأَعتقِدُهُ وآخذُ بِهِ وأَستهامُ عَليهِ، أَنِّي لَمْ أَجِدْ في جَميعِ مَنْ تَقَدَّمَ وتَأَخَّرَ ثَلاثَةً لَو اجْتَمَعَ الثَّقلانُ عَلى تَقريظِهِمْ ومَدحِهِمْ ونَشرِ فَضائِلِهِمْ في أَخلاقِهِمْ وعِلمِهِمْ ومُصَنَّفاتِهِمْ ورَسائِلِهِمْ مَدى الدُّنيا إِلى أَنْ يَأْذَنَ اللهُ بِزوالِها لَما بَلَغوا آخرَ ما يَستَحِقُّ كُلُّ واحدٍ مِنهُمْ، وذَكَرَ مِنَ الثَّلاثَةِ أَبا حَنيفَةَ الدَّينوري، وقالَ عَنهُ:

فَإِنَّهُ مِنْ نَوادرِ الرِّجالِ؛ جَمَعَ بينَ حِكمَةِ الفَلسَفَةِ وبَيانِ العَرَبِ. لَهُ في كُلِّ فَنٍّ ساقٌ وقَدَمٌ ورواءٌ وحكمٌ».

❋ ❋ ❋

لَقَدْ أَشارَ المُؤرخونَ إِلى قِيامِ أَبي حَنيفَةَ الدَينوريِّ بِرحلَتِهِ النَّباتيَّةِ، ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَذكروا البُلدانَ والأَقطارَ الَّتي زارَها.

وقد ذكرتِ المَصادِرُ والمَراجِعُ التَّاريخيَّةُ كتابَهُ «النَّباتَ»، واستَفاضَتْ بِذِكرِهِ كَثيراً،

ولَمْ يَصلْنا إِلَّا فُصولٌ مِنْهُ طُبِعَتْ في ليدن عامَ (1953) ميلاديَّةً، وتُرجِمَ هذا الكتابُ إِلى أَكثَرَ مِنْ لُغَةٍ، وقَد رَتَّبَ الدِّينوريُّ كِتابَهُ هَذا تَرتيباً مُعجَميّاً، وتَوخَّى الدِّقَةَ العِلميَّةَ والمَنهَجيَّةَ في كلامِهِ عَنِ النَّباتاتِ مُعتَمداً عَلى مُشاهداتِهِ بالدَّرجَةِ الأُولى، ثُمَّ المَوروثِ عَنِ العُلماءِ الَّذِينَ أَتَوا مِنْ قَبلِهِ، لِهذا كانَ كِتابُهُ فَريداً مِنْ نَوعِهِ، وبَليغاً في مُحتواهُ، أَضفَى فيهِ الدِّينوري مِنْ خِبرَتِهِ اللُّغَويَّةِ والبيانيَّةِ.

يَقولُ الدِّينوري في مُقَدِّمَةِ كِتابِهِ:

«أَتينا فيما قَدَّمنا مِنْ أَبوابِ هذا الكِتابِ عَلى ما اسْتَحسَنَّا تَقديمَ ذِكرِهِ قَبلَ ذِكرِ النَّباتِ نَبتاً نَبتاً. ونَحنُ آخذونَ في تَسميَتِها، وبِما انْتَهى إِلينا مِنْ صِفَتِهِ أَو شَاهَدناهُ».

ومِنْ خِلالِ كلامِ الدِّينوري في كِتابِهِ هذا عَنِ النَّباتِ وأَقسامِهِ وأَنواعِهِ وصِفَتِهِ وميزاتِهِ نُدرِكُ إِحاطَتَهُ العِلميَّةَ الدَّقيقَةَ فيما يَصفُ ويَتَحَدَّثُ؛ الأَمرُ الَّذِي يَجعَلُنا نَثِقُ بِكلامِهِ ونُسَلِّمُ بَحديثِهِ تَسليماً مُطلَقاً، فَمثلاً عِندما يَتَكَلَّمُ عَنِ النَّباتِ وأَقسامِهِ يَقولُ:

النَّباتُ كُلُّهُ يَجمَعُهُ الشَّجَرُ والعشبُ، فَالشَّجرُ: ما ارتَفَعَ عَلى ساقٍ وقاوَمَ الشِّتاءَ وكانَ لَهُ خَشَبٌ وأَورَقَتْ أَفنانُهُ كُلَّ عامٍ، والعشبُ: ما خالَفَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَنقَسِمُ العِشبُ إِلى قِسمَينِ: بَقلاً وجَنبَةً، فَالبَقلُ: أَضعَفُهُ، وهوَ ما يَبدو فرعُهُ وأَصلُهُ، فَيكونُ نَباتُهُ مِنْ بِذرِهِ. والجنبَةُ: أَقوى مِنَ البَقلِ، وهوَ ما بادَ فرعُهُ وبَقيَ أَصلُهُ، فَكانَ نَباتُهُ في أَرومَتِهِ، ولِذَلِكَ سُمِّيَ جَنبَةً لأَنَّهُ في جَنبَةٍ عَنِ البَقلِ والشَّجَرِ.

وعِندَما يَتَحَدَّثُ عَنْ نَوعٍ مُحَدَّدٍ مِنَ النَّباتِ يَصفُهُ وصفاً كاملاً مُبَيِّناً كُلَّ ما يَتَعَلَّقُ بِهِ حَتَّى

إلى أَماكِنِ وجودِهِ وزِراعَتِهِ، فَمَثلاً يَقولُ عَنْ نَباتِ الكُثيراءِ: الكُثيراءُ مَمدودٌ. وهَكذا نَطَقَتْ بِهِ العَربُ، وهو صِمغُ القَتادِ، وهيَ شَجَرَةُ شَوكَةٍ تَكونُ بِأَرضِ خُرَّاسانَ، وهيَ أَيضاً تُوجَدُ في الجِبالِ المُطلَّةِ عَلى طَرابلسِ الشَّامِ، ورأَيتُها أَنا تنبتُ في جَبَلِ الثَّلجِ، وهيَ جُمَمٌ لا تَرتَفِعُ عَنِ الأَرضِ أَكثَرَ مِنْ نِصفِ ذِراعٍ يَكونُ فيهِ الكُثيراءُ.

ويَقولُ عَنْ شَجَرِ الضَّجاجِ: الضَّجاجُ مِثلُ شَجرَةِ اللُّبانِ يَكونُ في جَبلٍ يُقالُ لَهُ: قَهوانَ مِنْ أَرضِ عُمانَ، وهوَ صِمغٌ أَبيضُ تُغسَلُ بِهِ الثِّيابُ فَيُنَقيها مِثلَ الصَّابونِ، ولِهذِهِ الشَّجرةِ حَبٌّ مِثلُ الآسِ، أَسودُ يَلذَعُ اللِّسانَ.

ويَذكُرُ في هَوامشِ كِتابِهِ مَصادرَهُ ومَراجِعَهُ إِن اضطَّرَّ الأَمرُ إِلى ذَلِكَ، كَما يَذكُرُ في طَيَّاتِ صَفَحاتِهِ وسُطورِهِ شَواهِدَ لُغَويَّةً وأَشْعاراً وحِكَماً، ومَسائِلَ في النَّحوِ، بَلْ ومُجادلاتٍ فِكريَّةً.

وقَدْ ذَكَرَ في فُصولِ مُؤَلفِهِ أَكثَرَ مِنْ تِسعمئَةٍ وثلاثينَ نَوعاً مِنَ النَّباتِ، وذَكَرَ ما يصلحُ مِنها دواءً مُفرداً أو مُرَكَّباً مَعَ غَيرِهِ.

❁ ❁ ❁

كَما كانَ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ مُلِمّاً بِعلومِ الأَقدمينَ إِلى جانِبِ ثَقافَتِهِ الدِّينيَّةِ واللُّغَويَّةِ والنَّباتيَّةِ، فَكانَ عالِماً بِالحَيوانِ، وعَالِماً بِالفَلَكِ والأَنواءِ ولَهُ كِتابٌ مُهِمٌّ في عِلمِ الفَلَكِ وحِسابِهِ أَسماهُ «الأَنواءَ»، يَقولُ فيهِ مُبَيِّناً سَبَبَ اهتِمامِ العَربِ وتَفَوُّقِهِمْ فيهِ عَلى الأُمَمِ الأُخرى:

«قَدْ سَجَعَتِ العَربُ في النُّجومِ أَسجاعاً، بِما أَدرَكتْهُ طولُ تَجرِبَتِهِمْ، وأحكمَ عِلمُها الماضي، ووَرثها الباقي، فَصَارَتْ مُتواترَةً مَحفوظَةً، وهيَ أَشَدُّ الأُمَمِ تَفَقُّداً لِذَلِكَ، وعنايَةً بِهِ؛ لأَنَّ جُلَّهُمْ قُطَّانُ بَوادٍ، وسُكانُ عَذَواتٍ قِفارٍ، أَهلُ عُمُدٍ سَيَّارَةٍ، تَبَّاعُ غَيثٍ، قَليلٌ عَلى غَيرِهِ تَعويلُهُمْ، فَأَبصارُهُمْ إِلى السَّماءِ طامِحَةٌ، وبِنواحيها مُوَكَّلَةٌ، يُطَيِّبُهُمُ البَرقُ إِذا لَمَعَ، والغَيثُ إِذا وقَعَ، ، والماءُ إِذا نَقَعَ، ويُظْعِنُهُمُ الحَرُّ إِذا وهَجَ، ويُجهِدُهُمُ البَردُ إِذا رَكَدَ، فَهُمْ بينَ نَجعَةٍ وحضورٍ، لَهُمْ في كُلِّ ريحٍ تَهبُّ، وكَوكَبٍ يَطلُعُ، ونَجمٍ يَنوءُ، أَمرٌ مُسهِرٌ أَو مُنَيِّمٌ، يَحميهِمُ الغَفلَةَ، ويَمْنَعَهُمُ التَّضييعَ، وما يَبلغُنا عَنْ أُمَّةٍ في ذَلِكَ ما بَلَغَنا عَنهُمْ، فَفي النَّاسِ أُمَمٌ غَيرُهُمْ أَهلُ بَوادٍ، وما في أَحدٍ مِنهُمْ علم الحِساب الَّذِي أَوغَلوا إِلى لَطائِفِ دَقائِقِهِ، وأَدرَكوهُ عَلى حَقائِقِهِ، فَلَمْ يُسْبَقوا بِهِ، ولَمْ يُدرَكوا فيهِ».

ويَتَحَدَّثُ عَنِ الرِّياحِ مُبَيِّناً ما أَكَّدَهُ وأَثبَتَهُ العِلمُ الحَديثُ مِنْ أَنَّ الرِّياحَ الشِّماليَّةَ أَخَفُّ هُبوباً مِنَ الرِّياحِ الجُنوبيَّةِ فَيقولُ:

«بَعضُ الرِّياحِ أَقلُّ هُبوباً مِنْ بَعض، فَالدَّبورُ قَليلَةُ الهُبوبِ، وكَذَلِكَ الشِّمالُ اللَّيلُ هيَ أَقَلُّ هُبوباً مِنَ الجَنوبِ، وقَلَّما تَهبُّ الشِّمالُ، وهيَ إِذا ضَربَ اللَّيلُ ضَعفَتْ أَو سَقَطَتْ، ولِذَلِكَ تَقولُ العَربُ في أَحاديثِها أَنَّ الجَنوبَ قالَتْ لِلشِّمالِ: إِنَّ لي عَليكِ فَضلاً، أَنا أَسري وأَنتِ لا تَسرينَ، فَقالَتِ الشِّمالُ: إِنَّ الحُرَّةَ لا تَسري».

ومِنْ كلامِهِ هَذا نُدركُ قُوَّةَ حُجَّتِهِ وبُرهانِهِ، وجَزالَةَ لَفظِهِ وبَيانِهِ، وهذا ما جَعَلَ أَبا حيَّان التَّوحيديَّ يَقولُ عَنهُ في «البَصائِرِ والذَّخائِرِ»:

«أَبو حَنيفَةَ الدَّينوري كانَ ثِقةً صَدوقاً عالِماً شَديدَ التَّحقُّقِ بِالحكمَةِ، ولَهُ لَهجَةٌ بَدويَّةٌ، وبيانٌ شاقٌّ، ووَصفٌ مُستَفيضٌ، يَزيدُ بِهذِهِ الخاصَّةِ عَلى عُلماءَ كانوا قَبلَهُ، فَإِنَّكَ لَنْ تَجدَ لِواحدٍ مِنهُمْ غَزارَتَهُ ومُضيَّهُ في الكَلامِ».

تُوفيَ أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ سَنَةَ (282) هجريَّةً، ومِنْ أَهمِّ مُؤَلفاتِهِ:

- النَّباتُ.
- الأَنواءُ.
- حِسابُ الدّورِ.
- الأَخبارُ الطِّوالُ.
- البُلدانُ.
- إِصلاحُ المَنطِقِ.
- الجَبرُ والمُقابَلةُ.
- ما يُلحِنُ فيهِ العامَّةُ.
- حِسابُ الهِندِ، وغَيرُها.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا لَمْ يَذكرِ المُؤرخونَ إِلَّا نَزراً يسيراً مِنْ حَياةِ الدَّينوري؟

2 ـ ماذا عَملَ ابنُ السّكيتِ، وكيفَ ماتَ؟

3 ـ أَينَ تَقعُ مَدينَةُ دَينورَ، ومَنْ فَتَحَها؟

4 ـ بِماذا اعتَنى الدَّينوريُّ؟

5 ـ ماذا قالَ التَّوحيديُّ عَنِ الدَّينوريِّ عندما ذَكرَ العلماءَ الثَّلاثَةَ؟

6 ـ كيفَ رَتَّبَ الدَّينوريُّ كِتابَ النَّباتِ؟

7 ـ ما الفَرقُ بينَ الشَّجَرِ والعشبِ؟

8 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤلفاتِ الدَّينوريِّ؟

رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ
النَّباتيُّ اللَّامعُ، والطَّبيبُ المُجاهِدُ
(573 ـ 639هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

أَبو الفَضْلِ، وقيلَ: أَبو مَنصور، رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ، عَالِمُ النَّباتِ، والطَّبيبُ المُجاهِدُ، الَّذِي صاحَبَ ورافَقَ سَلاطينَ بَني أَيوب، وحازَ عَلى ثِقَتِهِمُ المُطلَقَةِ بِعلمِهِ وإِخلاصِهِ ووَفائِهِ، وكانَ طَبيبَهُمُ الخَاصَّ ومُستَشارَهُمُ المُقَرَّبَ الَّذِي لا يُشَكُّ في نَواياهُ الحَسَنَةِ لِحرصِهِ عَلى إِفادَةِ النَّاسِ، وصُنعِ الخَيرِ لَهُمْ، حَيثُ كانَ يُعالِجُ النَّاسَ ويُطَبِّبُهُمْ مَجَّاناً مِنْ غَيرِ مُقابلٍ.

وفي الحروبِ المُتَتابِعَةِ الَّتِي شَنَّها الصَليبيونَ الفِرَنجَةُ عَلى سَواحِلِ بِلادِ الشَّامِ، كانَ أَبو الفَضلِ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ يَخرجُ مَعَ الجيوشِ الإِسلاميَّةِ لمُحارَبةِ الصَّليبيِّينَ عَلى الثُّغورِ في المُدنِ السَّاحليَّةِ: صور وعَكا ويافا والقُدسِ، لِيُعالِجَ الجُنودَ الجَرحى والمُصابينَ، ولِيُشارِكَ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، ولِيدحرَ الغُزاةَ عَنْ بِلادِهِ، وكانَ يَرى أَنَّ عَلى العالِمِ

زَكاةً يَجِبُ إيفاؤها للهِ ﷻ، وهيَ أَنْ يُعطي الآخرينَ ويُفيدَهُمْ مِنْ عِلمِهِ مِنْ غَيرِ مُقابِلٍ، وهَذا يَعني زَكاةَ العِلمِ.

كَما حَرصَ عَلى التَّدقيقِ في العِلمِ عِندَ أَخذِهِ مِنْ مَصادِرِهِ، فَكانَ لا يَقبلُ شَيئاً ولا يُثبِتُهُ إلَّا بَعدَ المُقارَنةِ والتَّمحيصِ ومَشورَةِ العُلماءِ مِنْ أَعيانِ عَصرِهِ، ولَهُ في هَذا المَنهَجِ إسْهاماتُهُ العَظيمَةُ في تَصويبِ الأَخطاءِ والأَغلاطِ في المُصَنَّفاتِ الَّتِي وضَعَها بَعضُ المُصَنِّفينَ قَبلَهُ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، فَقَدْ رَدَّ عَلى الأَخطاءِ والأَغلاطِ الَّتِي لاحَظَها في كِتابِ البَلغاريِّ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ وجَمَعَها في كِتابٍ أَسماهُ: «الرَّدَّ عَلى كِتابِ التَّاجِ البلغاريِّ في الأَدويَةِ المُفرَدةِ».

ورَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ رَحلَ كَغيرِهِ مِنَ عُلماءِ النَّباتِ العَربِ في سَبيلِ الاستزادَةِ بالمَعلوماتِ عَنِ النَّباتاتِ المُختَلِفَةِ، وعَنِ الأَدويَةِ المُفردَةِ ومُعايَنَتِها في مَنابِتِها. فَزارَ عِدَّةَ بُلدانٍ وأَمصارٍ، واستَفادَ وأَفادَ واطَّلَعَ عَلى ما مَكَّنهُ عِلمُهُ الإحاطَةَ بِخصائِصِ الأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ، ورُبَّما هَذا ما جَعلَهُ مَوضِعَ ثِقَةٍ مِنْ قِبَلِ السَّلاطينِ والأُمراءِ.

فَمَنْ هُوَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ رَشيدُ الدِّينِ ابنُ أَبي الفَضلِ بنِ عَليٍّ الصُّوريُّ، المُلَقَّبُ بِأَبي الفَضلِ. وِلدَ في مَدينَةِ صور في جَنوبِ القطرِ اللُّبنانيِّ الشَّقيقِ سَنَةَ (573) هجريَّةً، ونُسِبَ إِليها.

وتُعتَبَرُ مَدينَةُ صور مِنْ أَقدَمِ المُدنِ الموجودَةِ عَلى سَواحلِ بِلادِ الشَّامِ المُطِلَّةِ عَلى

البَحرِ المُتَوسطِ، ويُقالُ: إنَّها سُميَتْ بِهذا الاسمِ نسبَةً إلى امرأةٍ مَشهورَةٍ مِنَ العَربِ قَديماً.

وذَكَرَ النُوَيريُّ في كِتابِهِ «نِهايَةِ الأَرَبِ في فُنونِ الأَدَبِ»: إنَّ المَلكَ الفارسيَّ بيو راسب بنَ أَروندَاسبَ الَّذِي مَلكَ الأَقاليمَ السَّبعَةَ بَعدَ عَهدِ نَبيِّ اللهِ نوحٍ عليه السلام بَنَى مَدينَةَ بابِلَ وصور ودِمَشقَ مَعاً.

ولَعبَتْ مَدينةُ صور دوراً هامّاً في التَّاريخِ لِمَوقِعها المَنيعِ عَلى سَواحِلِ بلادِ الشَّامِ، وذُكِرَتْ كَثيراً في أَدبياتِ الشُّعوبِ الَّذِينَ مَرُّوا بِالمَنطِقَةِ كالرُّومانِ والإغريقِ.

كَما احتَلَها الصَّليبيونَ أَكثرَ مِنْ مَرَّةٍ، وجَعلوها مَقَرَّ قِيادَتِهِمُ العَسكَريَّةِ عَلى سَواحلِ بِلادِ الشَّامِ مع مَدينَةِ عَكَّا. وكانَ العَربُ المُسلمونَ يُحَرِّرونَها مِنْ أَيديهِمْ ويجلونَهُمْ عَنها، وكانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ تَتَحرَّرُ فيها مَدينَةُ صور مِنْ أَيديهِمْ عِندَما أَجلاهُمُ المَلكُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّينِ الأَيوبيُّ مِنْ كافَّةِ المُدنِ الَّتِي احتَلّوها في بِلادِ الشَّامِ.

وتُعتَبرُ مَدينَةُ صور ـ مَسقَطُ رأسِ رَشيدِ الدِّينِ ـ واحدَةً مِنَ المُدنِ العَربيَّةِ الَّتِي قَدمَتْ لِلعالَمِ العَربيِّ والإسلاميِّ كَوكَبَةً نادرَةً مِنَ العُلماءِ والشُّيوخِ الَّذِينَ فاضَتْ شهرَتُهُمْ في الآفاقِ، فَمنْ عُلمائِها:

الفَيلسوفُ المَشهورُ قَديماً فَرفَيوسُ الصُّوريُّ، والشَّاعرُ عَبدُ المُحسنِ الصُّوريُّ، والعالِمُ سَعيدُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ الحَسَنِ تِلميذُ عالِمِ البَصرةِ الحَسَنِ البَصريِّ، وأَحمَدُ بنُ عَطاءٍ الرُّذياريُّ الصُّوفيُّ، وكانَ فَقيهَ الدِّيارِ الشَّاميَّةِ في وقتِها، وعالي بنُ عُثمانَ بنِ جُنيٍّ النَّحويُّ

المَعروفُ، وكانَ عَالِماً فاضِلاً كَأَبيهِ؛ أَقامَ في صور وماتَ ودفنَ فيها، وأَبو الفَرجِ الأَرمنازيُّ خَطيبُ صور ومُحَدِّثُها ومُفيدُها، وكافورُ الصُّوريُّ الَّذِي رحلَ في آخرِ عمرِهِ إِلى بَغدادَ وسَكنَ فيها حَتَّى ماتَ، والعابِدُ الزَّاهدُ إِبراهيمُ بنُ الأَدهَمِ.

ومِنَ العُلماءِ الَّذِينَ نَزلوا في صور وحَدَّثوا فيها: العالِمُ الكَبيرُ أَبو الفَتحِ الرَّازيُّ، والإِمامُ أَبو بَكرٍ الخَطيبُ البَغداديُّ، والفَقيهُ أَبو زَكريا ابنُ الخَطيبِ البَغداديُّ.

وفي مَدينَةِ صور نَشأَ وتَرَعرَعَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ، وتَلَقَّى العِلمَ عَلى يَدِ عُلمائِها وشيوخِها في صور، ثُمَّ انتَقَلَ وأَقامَ في دِمشقَ.

❁ ❁ ❁

بَعدَ انتِقالِهِ وإِقامَتِهِ في دِمَشقَ، طافَ رشيدُ الدِّينِ عَلى عُلمائِها وأَطِبَّائِها يَنهَلُ مِنْ عُلومِهِم ومَعارِفِهِمْ. وقَرأَ كُتُبَ جالينوس، وكِتابَ ديسقوريدس، وما صَنَّفَهُ العُلماءُ قَبلَهُ. واشتَغَلَ بِعلمِ النَّباتِ والأَدويَةِ المُفرَدةِ عَلى يَدِ مُوَفَّقِ الدِّينِ عَبدِ اللَّطيفِ بنِ يوسُفَ، ومُوَفَّقِ الدِّينِ أَبي العَبَّاسِ بنِ أُصَيبعَةَ، فَكانَ مُوَفَّقُ الدِّينِ عَبدُ اللَّطيفِ بنُ يوسُفَ عالِماً وطَبيباً ولُغَوياً مَشهوراً، أَقامَ في دِمَشقَ يُعَلِّمُ النَّاسَ صِناعَةَ الطِّبِّ، ونالَ شُهرَةً كَبيرَةً في عَهدَ السُّلطانِ النَّاصِرِ صلاحِ الدِّينِ الأَيوبيِّ، فَعَيَّنَهُ صَلاحُ الدِّينِ مُدَرِّساً في الجامِعِ الأُمَويِّ، فَكانَ مَجلسُهُ يَغصُّ بِالنَّاسِ وبِطَلَبَةِ العِلمِ الَّذِينَ كانوا يَقصدونَهُ مِنْ كافَّةِ الأَنحاءِ.

وبَعدَ وفاةِ السُّلطانِ النَّاصِرِ صلاحِ الدِّينِ الأَيوبيِّ، لاقَى مُوَفَّقُ الدِّينِ عَبدُ اللَّطيفِ بنُ يوسُفَ العِنايَةَ والاحترامَ مِنْ أَبنائِهِ وخُلفائِهِ، وبِشَكلٍ خاصٍّ مِنَ المَلكِ العَزيزِ.

لَقَدِ استفادَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ مِنْ عِلمِ مُعَلِّمِهِ عَبدِ اللَّطيفِ بنِ يوسُفَ، ومِنْ تَفنيدِهِ لأَخطاءِ جالِينوسَ، وحَصَّلَ مِنهُ الكَثيرَ مِنْ خبراتِهِ العَمليَّةِ في صِناعَةِ الطِّبِّ والعَقاقيرِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ والمُرَكَّبَةِ.

وكانَ مُوَفَّقُ الدينِ أَبو العبَّاسِ بنُ أَصَيبعَةَ طَبيباً ومُؤَرِّخاً وعالِماً أَديباً ومُتَكَلِّماً يُقيمُ في دمَشقَ ويُمارِسُ مهنَةَ الطِّبِّ، ولَهُ مُؤَلَّفٌ هامٌّ في تاريخِ الطِّبِّ وهوَ «عُيونُ الأَنباءِ في طَبقاتِ الأَطِبَّاءِ».

أمضَى مُوَفَّقُ الدِّينِ حَياتَهُ مَتَنَقِّلاً ما بينَ صَرخَدَ ودمشقَ، وقَدْ أَخذَ عَنهُ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ الكَثيرَ مِنْ مَعارِفِ الأَولينَ في علمِ النَّباتِ وصِناعَةِ الطِّبِّ، غيرَ أَنَّ رَشيدَ الدِّينِ الصُّوريَّ قَدْ فاقَهُ عِلماً وخبرَةً في ذَلِكَ.

وفي ذاتِ مَرَّة أَهدَى رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ ابن أصيبعَةَ تَأليفاً يَحتَوي عَلى فَوائِدَ ووَصايا طبيَّةٍ، فَأُعجِبَ بِها ابنُ أُصَيبعَةَ، فَكَتَبَ إِليهِ مِنْ صَرخَد إِلى دِمشقَ يقولُ:

لَعِلمُ رَشيدِ الدِّينِ في كُلِّ مَشهَدِ ... مَنارٌ عَليٌّ يَأتَمُّهُ كُلُّ مُهتَدِ
حَكيمٌ لَديهِ المَكرُماتُ بِأَسْرِها ... تَوارَثَها مِنْ سَيِّدٍ بَعدَ سَيِّدِ
حَوى العِلمَ عَنْ آبائِهِ وجُدودِهِ ... فَذاكَ قَديمٌ فيهِ غَيرُ مُجَدَّدِ
تَفَرَّدَ في ذا العَصرِ عَنْ كُلِّ مُشَبَّهٍ ... بَخَيرِ صِفاتٍ حَصرُها لَمْ يُحَدَّدِ
أَتَتني وصاياهُ الحِسانُ الَّتِي حَوَتْ ... نَثيرَ كَلامٍ كُلِّ فَضلٍ مُنَضَّدِ
فَهدى إِلى قَلبي السُّرورَ ولَمْ يَزَلْ ... بِإِحسانِهِ يُسدي لِمثلي مِنْ يَدِ

وَجـدتُ مـا أَرتَـجـيـهِ وإِنـنَّـي بِـهـا أَبـداً فـيـمـا أُحـاوِلُ مُـقـتَـدي
ولا غَـرو مِـنْ عِـلـمِ الـرَّشـيـدِ وفَـضـلِـهِ إِذا كـانَ بَـعـدَ اللهِ في الـعِـلـمِ مُـرشـدي

❁ ❁ ❁

في دِمشقَ ذاعَ صيتُ رَشيدِ الدِّينِ الصُّوريِّ، فَاجتَباهُ المَلِكُ العادِلُ لِنَفسِهِ لِيَكونَ طَبيبَهُ الخاصَّ وقَرَّبَهُ إِليهِ ورافَقَهُ في بَعضِ غَزواتِهِ وأَسفارِهِ وحروبِهِ ضِدَّ الصَّليبيينَ في القُدسِ وفي سَواحِلِ بِلادِ الشَّامِ، كما رافَقَهُ إِلى مِصرَ وأَقامَ فيها فَترَةً مِنَ الزَّمَنِ.

بَعدَ وفاةِ المَلِكِ العادِلِ عَملَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ مَعَ ابنهِ المَلكِ المُعَظَّمِ عيسى صاحِبِ دِمَشقَ، ولاقَى لَديهِ حظوَةً عَظيمةً، فَقَدْ كانَ المَلِكُ المُعَظَّمُ عالِماً فَقيهاً، وكانَ في غايَةِ ما يَكونُ مِنَ الكَمالِ في عدَّةِ علومٍ وفُنونٍ، وكانَ رَجلَ بني أَيوب وعالمَهُمْ ومَحاسِنُهُ أَشهرُ مِنْ أَنْ تُذكَرَ، فهو المُجاهِدُ في سَبيلِ اللهِ، الغَازي النَّحويُّ؛ الَّذي تَفَقَّهَ مِنذُ صِغَرِهِ عَلى مَذهَبِ أَبي حَنيفَةَ النُّعمانِ، وحَفظَ تاريخَ المَسعوديِّ، وقَرأَ الأَدبَ والنَّحوَ عَلى عالِمِ دمَشقَ تاجِ الدِّينِ الكَنديِّ، وكانَ شُجاعاً مقداماً كَثيرَ الحَياءِ، حَسَنَ السِّيرَةِ، مُحِباً لِلعلمِ والعُلماءِ.

ويُحكَى عَنهُ أَنَّ أَحدَ عُلماءِ دمشقَ، ويَقالُ لَهُ «ابنَ العَنينِ» قَدْ مَرضَ مَرضاً شَديداً، فَكتَبَ إِلى المَلكِ المُعظَّمِ:

انـظُـرْ إِلـيَّ بِـعـيـنِ مَـولـى لَـمْ يَـزلْ يُـولـي الـنَّـدى وتَـلافَ قَـبـلَ تَـلافـي
أَنـا كَـالَّـذِي أَحـتـاجُ مـا يَـحـتـاجُـهُ فَـاغْـنَـمْ دُعـائـي والـثَّـنـاءَ الـوافـي

فَحضرَ إِليهِ المَلكُ المُعَظَّمُ يَصحبُهُ الطَّبيبُ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ، وأَحضَرَ المَلكُ مَعهُ ثَلاثَمئَةَ دينارٍ، ودَفَعها إِلى ابنِ العَنينِ وقالَ لَهُ:

أَنتَ الغارمُ، وأَنا الغَانِمُ، وهَذِهِ الصِّلَةُ.

وبَعدَ وفاةِ المَلكِ المُعَظَّمِ، خَلفَهُ ابنُهُ المَلِكُ الناصرُ داؤدُ بنُ عيسَى المُلَّقَبُ بِصلاحِ الدِّينِ، فَلَقيَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ مِنهُ ما كانَ يَلقاهُ مِنْ أَبيهِ مِنْ حَفاوَةٍ وتكريمٍ؛ لأَنَّ المَلِكَ النَّاصِرَ كانَ كَأَبيهِ عالِماً فَقيهاً فَاضِلاً مُناظِراً ذَكيّاً، لَهُ اليَدُ البيضاءُ في الشِّعرِ والأَدبِ، قَدْ حَصَّلَ طَرفاً جَيداً في العُلومِ في دَولَةِ أَبيهِ، وأَحَبَّهُ أَهلُ دِمَشقَ كَثيراً، وكانَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ أَحَدَ العُلماءِ الَّذِينَ تَلقَّى النَّاصِرُ العِلمَ عَلى أَيديهِمْ، فَحفظَ المَلِكُ النَّاصِرُ لَهُ هَذا الأَمرَ فَعَيَّنَهُ رَئيساً عَلى الأَطِبَّاءِ في دَولتِهِ.

❋ ❋ ❋

كانَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ يُرشِدُ أَطِبَّاءَ عَصرِهِ إِلى الإِخلاصِ في مِهنَتِهِمْ، وإِلى التَّحلي بِخلُقِ الصَّبرِ في عِلاجِ المَرضَى، وكَذَلِكَ إِلى التَّحَقُّقِ مِنَ الأَدويَةِ المُفردَةِ والتَّأَكُّدِ مِنْ خَصائِصِها، وتَفَرَّغَ في آخرِ حَياتِهِ لِلتَّأليفِ والتَّصنيفِ والتَّجوالِ في البُلدانِ والأَصْقاعِ لِمُعايَنَةِ النَّباتاتِ، ولِيَصفَها في بيئَتِها بِأَلوانِها وخَصائِصِها الطَّبيعيَّةِ في أَيَّامِ نَضارَتِها وجَفافِها، وكانَ يُدَوِّنُ ذَلِكَ ويَكتُبُهُ.

كَما كانَ يَصحَبُ مَعَهُ رَساماً يَقومُ بَرسمِ النَّباتاتِ بِأَلوانِها الطَّبيعيَّةِ بِأَصبِغَةٍ خَاصَّةٍ. وقَدْ

أَشادَ العُلماءُ والباحِثونَ بِأسلوبِهِ هَذا الَّذِي تَفَرَّدَ بِهِ عَنْ عُلماءِ النَّباتِ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِ، فَهوَ أَوَّلُ مَنْ وصَفَ النَّباتاتِ مَعَ صورَتِها ورَسمِها.

وهوَ أَوَّلُ مِنْ سَنَّ العَملَ الطَّوعيَّ لِلأَطبَّاءِ لِيُساهِموا بِذَلِكَ في سَبيلِ وطَنِهِمْ، وفي سَبيلِ خَيرِ أَبناءِ جُلدَتِهِمْ، بَلْ في سَبيلِ الإِنسانيَّةِ جَميعاً امتِثالاً لمبادئِ الدِّينِ الإِسلاميِّ الحَنيفِ، ولِتعاليمِ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ الَّذِي أَرسَلَهُ اللهُ رَحمَةً لِلعالمينَ.

وكانَ لَهُ في دِمشقَ في آخرِ حَياتِهِ مَجلسٌ خاصٌّ لِلأَطباءِ يَشرَحُ لَهُم فيهِ آخِرَ ما تَوصَّلَ إِليهِ عِلمُهُ في مَعرفَةِ خَصائِصِ الأَعشابِ والأَدويَةِ المُفرَدَةِ المُستَخلَصَةِ مِنَ النَّباتِ.

تُوفيَ رَشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ في دِمشقَ ودَفِنَ فيها سَنةَ (639) هجريَّةً، وتَركَ العَديدَ مِنَ المؤلفاتِ والمُصَنَّفاتِ في عِلمِ النَّباتِ، ولَكِنْ لَمْ يَصلْنا مِنها إِلَّا النَّذرُ اليَسيرُ.

ومِنْ مُؤَلَّفاتِهِ الَّتِي أَشارَ إِلَيها المُؤرخونَ:

1 ـ كِتابُ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

2 ـ كِتابُ النَّباتِ مُصَوَّرٌ بِالأَلوانِ.

3 ـ كِتابُ الرَّدِّ عَلى كِتابِ التَّاجِ البلغاريِّ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1ـ كيفَ كانَتْ علاقَةُ رَشيدِ الدِّينِ بِسَلاطينِ بَني أَيوبَ؟

2 ـ لِماذا كانَ رَشيدُ الدِّينِ يَخرجُ مَعَ الجيوشِ لِحَربِ الصَّليبيينَ؟

3 ـ أين ولِدَ رَشيدُ الدِّينِ، وفي أَيِّ عامٍ؟

4 ـ عَلى يَدِ مَن اشتَغَلَ رَشيدُ الدِّينِ بِعلمِ النَّباتِ؟

5 ـ مَنْ بَنَى مَدينَةَ صور؟

6 ـ ماذا لاقَى رَشيدُ الدِّينِ بَعدَ أَنْ ذاعَ صيتُهُ؟

7 ـ بِماذا انفَردَ رَشيدُ الدِّينِ عَنْ باقي العُلماءِ؟

8 ـ ما هيَ مُؤلفاتُ رَشيدِ الدِّينِ؟

مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ
النَّاقِدُ اللَّاذِعُ، والنَّباتيُّ السَّائِحُ
(575 ـ 639هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ، أَبو مُحَمَّدٍ، المَعروفُ بِابنِ اللَّبَّادِ، النَّاقِدُ اللَّاذِعُ، والنَّباتيُّ السَّائِحُ، واحِدٌ مِنْ عُلماءِ العَربِ والإِسلامِ الَّذِينَ شَهدتْ لَهُمْ سُطورُ التَّاريخِ بِسعَةِ العِلمِ، وغَزارةِ المَعرِفَةِ، ووفرَةِ الإِنتاجِ الفكريِّ والعلميِّ في شَتَّى ميادينِ العُلومِ والفُنونِ.

لَقَدْ أَخذَ العِلمَ عَنْ كِبارِ عُلماءِ عَصرِهِ في مَدينَتي بَغدادَ والمُوصِلِ؛ سَمعَ وناقَشَ وحَاوَرَ، ثُمَّ شَرعَ سائِحاً في البلدانِ والأَصقاعِ بَحثاً عَنْ مَزيدٍ مِنَ العِلمِ، وحُبّاً في لِقاءِ العُلماءِ ومُناظَرَتِهِمْ.

تَنَقَّلَ البَغْدادِيُّ في سِياحَتِهِ العِلميَّةِ بَينَ مُدنٍ عِدَّةٍ؛ كَبَغدادَ والموصِلِ ودمشقَ والقاهرَةِ والقُدسِ، ولَقيَ السَّلاطينَ والمُلوكَ وعالَجَهُمْ مِنْ بَعضِ الأَمراضِ، ولاقَى الحظوَةَ عندَ بَعضِهِمْ.

كانَ مُجادلاً ومُحاوراً ومُناظِراً مِنَ الطِّرازِ النَّادِرِ، اعترفَ لَهُ بِذَلِكَ كِبارُ العُلماءِ الَّذِينَ لَقيَهمْ وعاصَرَهُمْ في حَياتِهِ.

كما أَنَّهُ كانَ ناقِداً بَصيراً، نافِذَ الفِكرِ والبَصرِ، سَليطَ اللِّسانِ عَلى مَنْ يَنتَقِدهُ وهوَ يُفَنِّدُ أَغلاطَهُ وأَخطاءَهُ، لا يَخلو نَقدُهُ للآخرينَ مِنَ الكَلماتِ والأَلفاظِ الَّتِي تَنُمُّ عَنِ اسْتِخفافِهِ بِعلمِهِمْ، أَو عَنْ حَطِّهِ مِنْ قَدرِ كلامِهِمْ في مَسأَلَةٍ ما. فَكانَ خُصومُهُ ومُناظروهُ، يَخشَونَ مِنْ مُجاراتِهِ في الجَدَلِ والحِوارِ والخِصامِ لِسَطوَةِ لِسانِهِ، وبلاغَةِ كَلامِهِ، وقوَّةِ حُجَّتِهِ وبَيانِهِ.

وفي عِلمِ النَّباتِ، كانَ العَالِمَ الثَّبتَ الَّذِي لِمْ يَعتَمدْ عَلى مَعارِفِ الأَوَّلينَ وحَسب، وإِنَّما كانَتْ لَهُ صَولاتُهُ وجَولاتُهُ في هَذا المَيدانِ، وكانتْ لَهُ تَجارِبُهُ العِلميَّةُ، وأَبحاثُهُ الميدانيَّةُ الَّتِي مَكَّنَتْهُ مِنْ كَشفِ أَغلاطٍ مِنْ سَبَقوهُ في تَشريحِ النَّباتاتِ ووَصفِها، وإِنْ كانوا المَراجِعَ والمَصادرَ في هَذا العِلمِ. فَغَزارَةُ عِلمِهِ، وضَخامَةُ تَحصيلِهِ وإِنتاجِهِ العِلميِّ تَجعَلُنا نَعتَبِرُهُ مِنْ مَصافِّ ودَرَجَةِ عُلمائِنا المُوسوعيينَ الَّذِينَ عَرَكوا العِلمَ مِنَ المَهدِ إِلى اللَّحدِ، حَيثُ كانَ ـ رحمَهُ اللهُ تَعالَى ـ كَبيرَ الهِمَّةِ في التأليفِ والتَّصنيفِ، لا يَهدأُ بَنانُهُ عَنِ الخَطِّ والكِتابَةِ والتَّدوينِ في حِلِّهِ وتَرحالِهِ يَوماً أَو لَيلَةً.

فَمَنْ هُوَ أَبو مُحَمَّدٍ مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ؟

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو مُحَمَّدٍ مُوَفَّقُ الدِّينِ عَبدُ اللَّطيفِ بنُ يوسُفَ بنِ محَمَّدٍ بنِ عَليِّ بنِ أَبي سعدَةَ

البَغداديُّ، وعُرِفَ بِـ: ابنِ اللَّبادِ، وقَدْ لَقَّبَهُ تاجُ الدِّينِ الكَنَديُّ بِـ: الجِديِّ المُطَجَّنِ، وذَلِكَ لِرِقَّةِ وجهِهِ وتَجَعدِهِ ويُبسِهِ.

أَصلُهُ مِنْ مَدينَةِ المُوصُلِ في العِراقِ، ولَكِنْ كانَتْ ولادَتُهُ في بَغدادَ سَنَةَ (555) هجريَّةً، وتُوفيَ فيها سَنَةَ (629) هجريَّةً.

نَشَأَ موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ في مَدينَةِ بَغدادَ وتَرعرَعَ فيها، وكانَتْ بَغدادُ وقتئذٍ تَعجُّ بِالعلماءِ والفُقَهاءِ والمُحَدِّثينَ لِكونِها حاضِرَةَ الخِلافَةِ، وكَعبةَ العُلماءِ.

سَمعَ موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ في صِغرِهِ الحديثَ مِنْ أَبي الفَتحِ ابنِ البَطيِّ مُحَدِّثِ بَغدادَ في وقتِهِ، وسَمعَ أَيضاً مِنْ أَبي زَرعَةَ المَقدسيِّ أَحدِ المُحدِّثينَ الكِبارِ في بَغدادَ، وسَمعَ مِنْ شَهدَةَ الكاتِبَةِ مُسندَةِ العراقِ ومُحَدِّثَةِ بَغدادَ.

وعِندَما وجَدَ فيهِ أَبوهُ مَخايِلَ النَّجابَةِ والذَّكاءِ وحُبَّ العِلمِ، أَودَعَهُ في المَدرَسَةِ النِّظاميَّةِ في بَغدادَ لِيَتَلَقَّى العِلمَ في مَجلِسِ العالِمِ كَمالِ الدِّينِ بنِ الأَنباريِّ، وكانَ ابنُ الأَنباريِّ مُدَّرِساً وإِماماً فَاضلاً، وفَقيهاً ورِعاً، شَاعِراً عالِماً بِأُصولِ اللُّغَةِ وفُنونِها.

أَشرَفَ عَلى تَعليمِ موفَّقِ الدينِ البَغداديِّ في مَجلسِ الأَنباريِّ الوَجيهُ ابنُ الدَّهانِ الواسِطيُّ، وكانَ يُدَرِّسُ اللُّغَةَ والنَّحوَ في المَدرسَةِ النِّظاميَّةِ بِبَغدادَ، وعلى يَد هَذينِ العالِمينِ تَلَقَّى موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ مُعظَمَ عِلمِهِ، فَقَرأَ عَليهِما كُتُبَ اللُّغَةِ والحَديثِ والفِقهِ والأَدبِ والتَّفسيرِ وغَيرَها حَتَّى أَجازَهُ الأَنباريُّ بِالحَديثِ والتَفسيرِ وعُلومِ اللُّغَةِ مِنْ نَحوٍ وصَرفٍ وشِعرٍ وغيرِ ذَلِكَ.

ثُمَّ انتَقَلَ موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ إلى مَدينَةِ المُوصلِ لِيَأخذَ عَنْ عالِمها ومُحَدِّثِها الكمالِ بنِ يونِسَ عُلومَ الفَلكِ والحسابِ والرِّياضياتِ، وكانَ الكَمالُ بنُ يونسَ عالِماً بِعدَّةِ علوم، وتَفَرَّدَ بِالحسابِ والرِّياضياتِ، وقالَ عَنهُ الفُقَهاءُ: إنَّهُ يَدري أَربَعةً وعشرينَ فَنّاً دِرايَةً مُتقَنَةً، حَتَّى إنَّ أَهلَ الذِّمَّةِ في المُوصلِ كانوا يَقرؤونَ عَليهِ التَّوراةَ والإنجيلَ، ويَشرحُ لَهما هَذينِ الكِتابينِ شَرحاً يَعترفونَ أَنَّهمْ لا يَجدونَ مَنْ يُوضحهُما لَهُمْ مِثلُهُ، وقَدْ أُنشئَتْ في المُوصلِ مَدرسَةٌ عُرفَتْ بِالمَدرسَةِ النِّظاميَّةِ نسبَةً إليهِ.

❁ ❁ ❁

أَقامَ موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ في الموصلِ بَعدَ أَنْ أَجازَهُ ابن يُونسَ، وعَملَ مُدرِّساً في مَدرَسَةِ ابنِ مُهاجرٍ، وفي دار الحَديثِ فيها، وقرأَ مؤلفاتِ الشَّيخِ الرَّئيسِ ابنِ سينا، وطالَعَ في كُتبِ جالينوس وديسقوريدس، ودرسَ كُتُبَ عُلماءِ النَّباتِ العَربِ الَّذِينَ سَبقوهُ، وأَجرى اختِصاراتٍ لِبَعضِها، كما قَرأَ في كُتُبِ الصُّوفيَّةِ وفَنَّدَ بَعضَها.

ثُمَّ غادرَ المُوصلَ إلى دمشَقَ والتَقى فيها العالِمَ والمُحَدِّثَ تاجَ الدِّينِ الكَنديَّ البَغداديَّ، وجَرَتْ بَينَهُما مُحاوراتٌ ومُناظراتٌ. وفي دمَشقَ وضَعَ موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ بَعضَ التَّصانيفِ والمؤلَّفاتِ، ومُعظَمها في عِلمِ النَّباتِ والأَدويةِ المُفرَدَةِ، وحَمَدَ النَّاسُ ذِكرَهُ كَعالِمٍ لُغَويٍّ ونحوَيٍّ لامعٍ، وكَطبيبٍ بارعٍ، ثُمَّ انتَقَلَ إلى مَدينَةِ عَكا في فِلسطينَ، حيثُ كانَ السُّلطانُ النَّاصرُ صلاحُ الدينِ الأَيوبيُّ قَدْ حَرَّرَ بيتَ المَقدسِ مِنْ أَيدي الصَّليبيينَ وأَجلاهُمْ مِنْ المُدنِ السَّاحليَّةِ، فَالتَقى بِهِ وبِالقاضي ابنِ شَدَّادٍ مؤرخِ سيرَةِ النَّاصِرِ صَلاحِ

الدِّينِ، وكانَ قاضي قُضاةِ الدَّولَةِ ابنُ شَدادٍ نافذَ الكَلمةِ، ولَهُ سُلطانٌ وهَيبَةٌ عَلى سَلاطينِ وأُمراءِ بَني أَيوبَ، ولَمَّا أَزمَعَ موفَّقُ الدينِ البَغداديُّ عَلى السَّفرِ إِلى القاهرَةِ في مصرَ كَتَبَ لَهُ ابن شَدَّادٍ رِسالَةً إِلى أَصحابِ النُّفوذِ فيها يُوصيهِمْ بِإِكرامِهِ والإِحسانِ إِليهِ واحترامِهِ والاستفادَةِ مِنْ عِلمِهِ.

وفي مصرَ لاقَى موفَّقُ الدينِ الاحترامَ والحَفاوَةَ والتَّكريمَ، والتقَى فيها بِبَعضِ العُلماءِ والأَطِبَّاءِ كَموسى بنِ ميمونَ الطَّبيبِ، وياسمينَ السِّيميائي، وأَبي القاسمِ الشَّراعي وغَيرِهِمْ.

ثُمَّ عادَ مِنْ مصرَ إِلى مَدينَةِ القُدسِ وأَقامَ فيها يُعلِّمُ النَّاسَ عُلومَ اللُّغةِ والطِّبِّ، وأَجرى لَهُ السُّلطانُ النَّاصرُ صلاحُ الدينِ راتِباً شَهريّاً تَقديراً لِجهودِهِ العِلميَّةِ في خِدمَةِ النَّاسِ وتَطبيبِهِمْ.

ثُمَّ غادَرها عائِداً إِلى دمشَقَ، وجَلسَ في جامعها الكبيرِ يُعَلِّمُ طَلبَةَ العِلمِ. وبَعدَ وفاةِ السُّلطانِ النَّاصرِ صلاحِ الدِّينِ، لاقَى موفَّقُ الدينِ مِنْ أَبنائِهِ العِنايَةَ نَفسَها، وبِشكلٍ خاصٍّ مِنَ المَلكِ الأَفضلِ صاحبِ دِمشقَ.

❋ ❋ ❋

عِندَما قَدمَ المَلكُ العَزيزُ الأَيوبيُّ مِنْ مِصرَ إِلى دِمشقَ وعَرضَ لَهُ عارِضٌ صحيٌّ مُفاجئٌ قامَ موفَّقُ الدينِ بِعلاجِهِ حَتَّى برئَ مِنْ مَرضِهِ، فَأُعجبَ المَلكُ العَزيزُ بِذكائِهِ وعَرضَ عَليهِ مُرافَقَتَهُ إِلى مِصرَ، فَوافَقَ عَلى عَرضِهِ.

في مِصرَ أَغدَقَ العَزيزُ عَلى مُوَفَّقِ الدِّينِ الأَموالَ والأُعطياتِ لِقاءَ إِفادَةِ النَّاسَ بِعلمِهِ، وجَلَسَ موفَّقُ الدينِ مَعَ أَبي القاسِمِ الشِّراعيِّ في جامِعِ الأَزهرِ يَجودُ عَلى النَّاسِ بِعلمِهِ ومَعرفَتِهِ، ولَكِنْ بَعدَ فَترَةٍ مِنَ الزَّمنِ انتَقَلَ موفَّقُ الدينِ إِلى القُدسِ وجَلَسَ في الجامِعِ الأَقصَى يُعَلِّمُ النَّاسَ حَتَّى طابَتْ لَهُ العَودَةُ إِلى دمشقَ.

وفي دمشقَ تَفَرَّغَ موفَّقُ الدينِ لِلتَّصنيفِ والتَّأليفِ، ولتَعليمِ الطَّلبَةِ أُصولَ علمِ الطِّبِّ، وخَصائِصَ الأَدويَةِ النَّافِعَةِ والمُجَرَّبَةِ، ثمَّ قَصدَ بلادَ الرُّومانِ وزارَ مَدينَةَ مَلطيَةَ ـ وهيَ في بِلادِ تركيا حاليّاً ـ أَقامَ فيها سَنواتٍ عِدَّةً يُعاينُ فيها بَعضَ النَّباتاتِ في مواطِنِها، ويَتَعرَّفُ عَلى ما تَوصَّلَ إِليهِ علمُ الرُّومانِ في الطِّبِّ، ولازَمَ فيها الأميرَ عَلاءَ الدِّينِ بنَ بَهرامَ، ثُمَّ عادَ مِنْ هذِهِ الرِّحلَةِ إِلى بِلادِ الرُّومانِ ونَزَلَ في مَدينَةِ حَلَبَ وأَقامَ فيها فَترةً، ثُمَّ رجعَ مِنْ هَذِهِ الرِّحلَةِ والسِّياحَةِ العلميَّةِ إِلى بَغدادَ بَعدَ أَنْ غابَ عَنها (45) عاماً، فَأَقامَ فيها حَتَّى وفاتِهِ.

ومِنْ أَدعيَتِهِ البَليغَةِ الَّتِي تَدلُّ عَلى تَمَكُّنِهِ مِنَ العُلومِ الحكميَّةِ هذا الدُّعاءُ الجَميلُ الَّذِي ذَكَرَهُ عَلى لِسانِهِ المُصنِّفُ صلاحُ الدينِ الصَّفَديُّ في كتابِهِ (الوافي بالوفياتِ):

«اللَّهمَّ أَعِذْنا مِنْ جُموعِ الطَّبيعَةِ، وشُموسِ النَّفسِ، وسَلِّسْ لَنا مَقارَ التَّوفيقِ، وخُذْ بِنا في سَواءِ الطَّريقِ، يا هاديَ العُمي، يا مُرشِدَ الضَّالِّ.

يا مُحيي القُلوبِ المَيْتَةِ بِالإِيمانِ، خُذْ بِأَيدينا مِنْ مَهواةِ الهَلَكَةِ، ونَجِّنا مِنْ ردغَةِ الطَّبيعَةِ، وطَهِّرْنا مِنْ دَرنِ الدُّنيا الدَّنيَّةِ بِالإِخلاصِ لَكَ والتَّقوى، إِنَّكَ مالِكُ الدُّنيا

والآخرَةِ، سُبحانَ مَنْ عَمَّ بِحكمَتِهِ الوجودَ، واستحَقَّ بِكلِ وجهٍ أَنْ يَكونَ هوَ المَعبود، تَلْألأَتْ بِنورِ جَلالِكَ الآفاقُ، وأَشرَقَتْ شَمسُ مَعرفَتِكَ عَلى النُّفوسِ إِشراقاً وأَيَّ إِشراقٍ».

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ موفَّقُ الدينِ جَريءَ الكَلامِ سَليطَ اللِّسانِ، يَصفُ الآخرينَ كما يَراهُمْ ويَجدُهُمْ، ويَنقِدُ أَخطاءَهُمْ بأسلوبٍ لاذِعٍ لا هوادَةَ فيهِ ولا مُجامَلَةَ. وكانَ يَكرَهُ الأَخذَ بِالرأي المُتمادي في التأويلِ والتَّفَلسفِ، ولِهذا ردَّ عَلى ابن سينا، وعَلى أَبي بَكرٍ الرَّازيِّ في رسائِلَ خاصَّةٍ، وردَّ عَلى غَيرِهِما مِمَّنْ لَمْ تُعجِبهُ آراؤُهُمُ التِي لَمْ تَكُنْ مُتَّفقَةً مَعَ النَّقلِ أَو المَأثورِ مِنْ قَولِ السَّلَفِ، ورُبَّما هَذا ما جَعَلَ بَعضَ المُصَنِّفينَ يُحطونَ مِنْ قَدرِهِ، كَابنِ القِفطيِّ وغيرِهِ.

ويذكُرُ الصَّفديُّ في (الوافي بِالوَفيَّاتِ) طَرفاً مِن انتِقاداتِ موفَّقِ الدِّينِ الَّتِي جَرتْ عَلى لِسانِهِ، فَيقولُ مُنتَقداً السَّهروردي عِندَما أَقامَ في الموصلِ:

«وأَقمتُ في الموصلِ، وسَمعتُ النَّاسَ يَلْهَجُونَ في حَديثِ السَّهروردي المُتَفَلسِفِ، ويَعتَقدونَ أَنهُ فاقَ الأَولينَ والآخرينَ، وأَنَّ تَصانيفَهُ فوقَ تَصانيفِ القُدماءِ. وأَدرَكَني التَّوفيقُ، وطَلبتُ مِنِ ابنِ يونسَ شَيئاً مِنْ تَصانيفِهِ، فَصادَفتُ فيها ما يَدلُّ عَلى جهلِ أَهلِ الزَّمانِ».

وقالَ في انتِقادِ تاجِ الدِّينِ الكِنديِّ:

«ثُمَّ دَخلتُ دِمَشقَ، واجتَمَعتُ بِالكِنديِّ البَغداديِّ النَّحويِّ، وجَرَتْ بَينَنا مُباحَثاتٌ،

وكانَ شَيخاً ذَكيّاً لَهُ جانِبٌ مِنَ السُّلطانِ، لَكنَّهُ مُعجَبٌ بِنَفسِهِ، مُؤذٍ لِجَليسِهِ، وأَظهَرني اللهُ عَليهِ في مُباحثاتٍ، ثُمَّ أَهملتُ جانِبَهُ، وكانَ يَتَأَذَّى لِإِهمالي».

وقالَ يَصِفُ بَعضَ العُلماءِ الَّذِينَ لَقيَهُمْ في القاهرَةِ:

«فَلَمَّا دَخلتُ القاهرَةَ أَقمتُ في مسجدِ الحاجِبِ لُؤلُؤ أُقرئُ النَّاسَ، وكانَ قَصدي ياسمينَ السيميائي، والرئيسَ مُوسى بنَ مَيمونَ، وأَبا القاسِمِ الشَّراعيَّ، أَمَّا ياسمينُ فَوَجَدتُهُ مُحايِلاً كَذَّاباً، وأَمَّا موسَى بنُ مَيمونَ اليَهوديُّ وجدتُهُ فاضِلاً لا في الغايَةِ، قَدْ غَلبَ عَليهِ حُبُّ الرِّياسَةِ وخدمَةُ أَربابِ الدُّنيا، وأَمَّا أَبو القاسِمِ فَوجدتُهُ كَما تَشتهي الأَنفُسُ وتَلذُّ الأَعينُ، سِيرَتُه سيرَةُ الحُكماءِ والفُضلاءِ».

ومِنْ ثَمَّ، لَمَعَ موفَّقُ الدينِ بينَ عُلماءِ عَصرِهِ في عِلمِ النَّباتِ والطِّبِّ، وقَدَّمَ في هَذا المِضمارِ دراساتٍ وافِرَةً، وكانَ لَهُ مَنهَجُهُ الخاصُّ عَنْ غَيرِهِ في البَحثِ عَنْ خَصائِصِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ، وكَذَلِكَ في الكَشفِ عَنْ أَسبابِ المَرضِ، ولَقدْ أُعجِبَ بِهِ العالِمُ الغَربيُّ «سارتون» وقالَ:

«إِنهُ مِنَ العُلماءِ الَّذِينَ ما كانوا يُؤمنونَ بِالرِّوايَةِ المُتناقِلَةِ، بَلْ يَميلونَ إِلى المُشاهَدَةِ والتَّجربَةِ العِلميَّةِ كَي يَصلوا إِلى النَّتائِجِ نَفسِها».

ويَكفي موفَّقَ الدينِ البَغداديَّ فَخراً بينَ عُلماءِ النَّباتِ العَربِ، أَنَّهُ أَرشَدَ إِلى أَخطاءِ جالينوس، وكَتَبَ لِطُلَّابِ الطِّبِّ نَصائِحَ ضَمَّنَها كُتُبَهُ.

ومِنْ أَهمِّ مُصَنَّفاتِهِ الهامَّةِ في عِلمِ النَّباتِ:

ـ اختِصارُ كِتابِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ لابن وافدٍ.

ـ كِتابٌ كَبيرٌ في الأَدويَةِ المُفرَدَةِ.

ـ اختِصارُ كِتابِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ لابن سَمجونَ.

ـ اختِصارُ كِتابِ الأَدويَةِ المُفرَدَةِ لأَبي حَنيفَةَ الدِّينوري.

ـ انتِزاعاتٌ مِنْ كِتابِ ديسقوريدسَ في صِفاتِ الحَشائِشِ.

ـ ومَقالَةٌ في النَّخلِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ مِمَّنْ سَمعَ مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ في صغرِهِ؟

2 ـ لِماذا انتَقَلَ مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ إلى المُوصلِ؟

3ـ ماذا عَملَ مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ في البَصرَةِ؟

4 ـ بِمَنِ التَقى مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ في دمشقَ؟

5 ـ كيفَ استُقبِلَ مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ في مصرَ، ولِماذا؟

6 ـ لِماذا أَجرى الملكُ النَّاصِرُ أَجراً شَهرياً لِموفقِ الدِّينِ؟

7 ـ لِماذا انتَقَدَ مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ ابنَ سينا والرَّازيَّ؟

8 ـ عَدَدْ أَهمَّ مُؤلفاتِ موفقِ الدِّينِ في علمِ النَّباتِ.

ابنُ ماجِدٍ النَّجديُّ
أَسَدُ البِحارِ، وشاعرُ القِبلتَينِ
(838 ـ 910هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

ابنُ ماجِدٍ، أَسدُ البِحارِ، وشاعرُ القِبلتينِ، كَما قالَ عَنْ نَفسِهِ ـ اشْتُهرَ في القرونِ الوسطَى بِمُكتَشِفِ طَريقِ الهندِ عَبرَ البِحارِ، وإِليهِ يُعزَى اختراعُ البُوصَلَةِ المِغناطيسيَّةِ الَّتِي تُرشِدُ السُّفنَ في الطُّرقِ البَحريَّةِ في أَعالي البِحارِ، كَما قامَ بِوضعِ العَديدِ مِنَ المُصَنَّفاتِ في عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ الَّتِي اعتُبِرَتْ مِنْ أَهمِّ المَراجعِ العِلميَّةِ لأُصولِ عِلمِ جغرافيا الملاحَةِ البَحريَّةِ في العالَمِ أَجمَعَ.

فَفيها مَباحثُ عَنْ تاريخِ المِلاحَةِ وحَركَةِ القَمَرِ ومَهبِّ الرِّياحِ وتحَديدِ الوجْهاتِ للمُسافِرينَ ومَطالِعِ النُّجومِ ومَواسِمِ الرِّياحِ والمدِّ والجَزرِ. وهو من حَدَّدَ المَسافاتِ بينَ كثير مِنْ مُدنِ العَالم القَديم، ولِهَذا اعتُبِرَ ابنُ ماجِدٍ أسدَ البَحرِ وأمهرَ المَلَّاحينَ في زَمانِهِ قَاطبَةً.

كانَ أَوَّلَ مَنْ وضَعَ كُتُباً ومُصَنَّفاتٍ تَحدَّثَ فيها عَنِ الصِّفاتِ الَّتِي يَنبغي تَوَفرُها في الرُّبانِ البَحريِّ، والسُّلوكِ الَّذِي يَجبُ عَليهِ اتِّباعُهُ، كَما أَلَّفَ الأَراجيزَ الشِّعريَّةَ الَّتِي صاغَ

فيها قَواعِدَ عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، والصِّفاتِ النَّفسيَّةِ والأَخلاقيَّةِ لِمَنْ يَعمَلُ في البِحارِ، بِإسلوبٍ أَدَبيٍّ بَليغٍ وأَلفاظٍ جَزلَةٍ، يُحاكي فيها الطَّبيعَةَ والإِنسانَ، فَقَدْ كانَ مِنَ الشُّعراءِ المَوهوبينَ والمَرموقينَ الَّذِينَ خَلَّدَتْ لَهُمْ مُصَنَّفاتُ الشِّعرِ والشُّعراءِ القَصائِدَ والأَشعارَ الَّتِي تضَعُهُ في مُقَدِّمَةِ شُعراءِ عَصرِهِ.

ولَقَدْ أَشادَ بِعلمِهِ الجَمِّ، وفكرِهِ المَوسوعيِّ، وإِبداعِهِ الكَبيرِ، كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ والدَّارسينَ والبَحَّاثةِ الأَوربيينَ في العَصرِ الحَديثِ، واعتَبروهُ واضِعَ اللَّبِناتِ الأُولى لِعلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، وأَشادوا بِفَضلِهِ العَظيمِ عَلى الفِكرِ الإِنسانيِّ، وعَلى الحَضارَةِ الأَوربيَّةِ، وخاصَّةً أَنَّهُ قادَ أَوَّلَ سَفينَةٍ أوربيَّةٍ لأَحدِ البَحارَةِ البُرتُغاليينَ مِنْ سَواحِلِ إِفريقيَةَ الشَّرقيَّةِ إِلى سَواحِلِ الهندِ الغَربيَّةِ، وعَرَّفَ البَحارَةَ الأوربيينَ عَلى طَريقِ الهندِ والصينِ وأَندونيسيا واليابانِ وغَيرِهِمْ مِنَ البُلدانِ الواقِعَةِ عَلى هَذا الطَّريقِ البَحريِّ.

فَمَنْ هُوَ ابنُ ماجدٍ؟

❁ ❁ ❁

هوَ شهابُ الدِّينِ أَحمدُ بنُ ماجدٍ بنِ عَمرَ بنِ فَضلٍ بنِ دويكٍ بنِ يوسُفَ بنِ حسينِ بنِ أَبي مَعلق السَّعديُّ بنِ أَبي الرَّكائِبِ النَّجديُّ.

ولِدَ سنةَ (838) هجريَّةً في مَدينَةِ جلفارَ الواقِعَةِ عَلى سواحلِ عُمانَ في شِبهِ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ.

وهوَ يَنحَدرُ مِنْ أُسرَةٍ رَبابِنَةٍ، تَوارَثَ رُكوبَ البَحرِ والعَملَ فيهِ أَباً عَنْ جدٍّ، فَقَدْ كانَ أَبوهُ رُبّاناً يُلَقَّبُ بِرُبَّانِ البرَّينِ (بَرِّ العَربِ وبَرِّ العَجَمِ) كَما أَنَّ جدَّهُ كانَ مَلّاحاً مَشهوراً.

ومُنذُ نَشْأَتِهِ الأُولَى وجَدَ في نَفسِهِ مَيلاً نَحوَ السَّفَرِ في البَحرِ، فَتَنَقَّلَ بينَ عِدَّةِ مُدُنٍ بَحريَّةٍ عَلى السَّاحِلِ العُمانيِّ، وتَيَسَّرَ لَهُ الاطِّلاعُ عَلى مُؤلَّفاتٍ قَديمَةٍ في كافَّةِ العُلومِ، واشْتَغَلَ مُنذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ بِقَرضِ الشِّعرِ ونَظمِهِ، وخاضَ عالَمَ البِحارِ، وانشَغَلَ فَترَةً في القِياساتِ الفَلَكيَّةِ، وعِلمِ النُّجومِ.

عِندَ نُضوجِهِ الفِكري والعَقلي تَوَسَّعَتْ مَعارفُهُ، فَاطَّلَعَ عَلى عُلومِ عَصرِهِ، وقَرأَ العَديدَ مِنَ الكُتُبِ في عُلومٍ مُختَلِفَةٍ، وبِشَكلٍ خاصٍّ فيما يَتَعَلَّقُ بِالجُغرافيةِ الفَلَكيَّةِ والرِّياضيَّةِ.

ثُمَّ بَدأَ رِحلَتَهُ البَحريَّةَ العالميَّةَ، وسافَرَ إِلى أَكثَرَ مَنْ بَلَدٍ واطَّلَعَ عَلى شُعوبِها وعاداتِها وتَقاليدِها، وتَعَلَّمَ لُغاتِها، فَكانَ عارِفاً بِاللُّغَةِ السَنسكريتيَّةِ، ولُغَةِ جاوَةَ والزِّنجِ والفارسيَّةِ، إِضافَةً إِلى ضُلوعِهِ في عُلومِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ.

ورُبَّما هَذا الأَمرُ جَعَلَهُ يَثِقُ في نَفسِهِ كَثيراً وثوقَ العالِمِ الَّذِي لا يُضاهيه أَو يُجاريهِ أَحدٌ في رُكوبِ البَحرِ ومَعرِفَةِ قَواعِدِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، ولِهذا كانَ يَعتَبِرُ نَفسَهُ رابِعَ اللُّيوثِ (المعالمَةِ البَحريَّةِ) الَّذِينَ عُرِفوا قَديماً في سَواحِلِ الجَزيرَةِ العَربيَّةِ والخَليجِ العَربيِّ وهُمْ: مُحَمَّدُ بنُ شَذانَ، وسَهلُ بنُ أَبانَ، ولَيثُ بنُ كَهلانَ.

وها هوَ ذا يَقولُ مُعتَداً بِنَفسِهِ في أُرجوزَتِهِ الميميَّةِ:

وأَلقوا سِلاحَ الجهلِ لَمَّا تحققوا مَقالي في عُربٍ وعَجَمٍ ودَيلَمِ

بِـقَـولـي رابِـعٌ لِـثـلاثَـةٍ فَـحَـقٌّ لِـحُـسَّـادي تَـمـوتُ وتَـغـتَـمُ
بَـوادرُ عِـلـمِ الـبَـحـرِ عَـنـي تَـفَـرَّعَـتْ وخَيرُ صِفاتِ البَحرِ تَصدرُ عَنْ فَمي

❋ ❋ ❋

في قَصيدتِهِ «ضَريبَةِ الضَرائِبِ» يُنبِئُ ابنُ ماجِدٍ ما سَيكونُ ذِكرُهُ في المُستَقبلِ عَبرَ الأَجيالِ الآتيَةِ على مَرِّ العُصورِ والأَزمانِ فَيقولُ:

فإنْ تَجهَلوا قَدرَ حَياتي فَإِنَّما سَيَأْتي رِجالٌ بَعدَكُمْ يَعرفوا قَدري

ورُبَّما قالَ ابنُ ماجِدٍ هَذا الكَلامَ مِنْ بابِ مَدحِ العِلمِ الَّذِي سَيُعلي ذِكرَهُ بينَ النَّاسِ، ولَيسَ مِنْ بابِ التَّفاخرِ أَو التَّباهي أَو الغُرورِ بِالنَّفسِ.

وفِعلاً، ما جَهلَهُ البَعضُ مِنَ العِلمِ الَّذِي حَصَّلَهُ ابنُ ماجدٍ في حَياتِهِ، أَتَى مِنْ بَعدِهِ مَن اعتَرفَ بَقدرِهِ العلميِّ، وشَهدَ لَهُ بيدِ السَّبقِ في إِرساءِ قَواعدِ عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، وإِرشادِ الإِنسانيَّةِ إِلى فَنِّ خَوضِ عالمِ البِحارِ، وركوبِ عبابِهِ.

فَقدْ أَشارَ الباحِثُ الأُوربيُّ «جيمسُ بنُ نَسيبٍ» إِلى أَنَّ ذِكرى ابن ماجدٍ، ما زالَتْ حَيَّةً في الهِندِ وفي جُزُرِ المالديفِ في النِّصفِ الأَوَّلِ مِنَ القرنِ التَّاسع عَشَر، وهُمْ يَعتَمدونَ عَلى القَواعدِ الَّتِي وضَعَها في عِلمِ الملاحَةِ.

ويُشيرُ الأُستاذُ «فيرانُ» بَعدَ ذِكرِهِ كُتُبَ ابن ماجدٍ أَنَّها تَشملُ عَلى مَعلوماتٍ كَثيرَةٍ نَظَريَّةٍ وعِلميَّةٍ في عِلمِ المِلاحَةِ، وهيَ خُلاصَةُ تَجاربِ ابنِ ماجدٍ الشَّخصيَّةِ، وعَلى هذا يُمكِنُنا أَنْ نَنظُرَ إِليهِ كَأَساسٍ لِعلمِ المِلاحَةِ في السِّنين الأَخيرَةِ مِنَ القُرونِ الوسطَى.

ويُعَدُّ ابنُ ماجدٍ الأَوَّلَ بينَ مُؤَلفي عِلمِ المِلاحَةِ مِنَ الأُوربيينَ، أَمَّا المَعلوماتُ عَنْ رِياحِ بِحارِ الهندِ والرِّياحِ المَحليَّةِ والطُّرقِ، وخُطوطِ الطُّولِ لِمرافئ المُحيطِ الهنديِّ كُلِّهِ فَهيَ مُتقَنَةٌ ومُفَصَّلَةٌ.

ووردَ ذِكرُ ابنِ ماجدٍ في كِتابِ «المُحيطِ» لِلأَميرالِ التُّركيِّ «سيدي عَليِّ بنِ حُسينٍ» حينَ ذَكَرَ رِحلَتَهُ إِلى المُحيطِ الهنديِّ في عام (1544) ميلاديَّةً، وقَدْ خَصَّهُ في كِتابِهِ بِإِطراءٍ ومَديحٍ وسَمَّاهُ: «الباحِثَ عَنِ الحَقيقَةِ بينَ البَحارينَ».

ورَوى البحَّارُ البُرتُغاليُّ «فاسكو دي جاما» مُرافَقَةَ ابنِ ماجدٍ لَهُ في إِحدى سَفراتِهِ، وكانَ يُسميه «كان يا ما كانَ»، ويُؤكدُ المُؤرخُ «قطبُ الدِّينِ النَهرواني» في مَخطوطِهِ: «البَرقِ اليَمانيِّ في الفِخِّ العَثمانيِّ» أنَّ هَذا الرُّبانَ هو «أَحمدُ بنُ ماجِدٍ».

فَقدْ قادَ ابنُ ماجدٍ سَفينَةَ الرُّبانِ البُرتُغاليِّ «فاسكو دي جاما» مِنْ مَدينَةِ «ماليندي» في الساحِلِ الشَّرقيِّ لإِفريقية، إِلى مَدينَةِ «كلكتا» عَلى السَّاحِلِ الغَربيِّ لِلهندِ، وكانَ دي جاما أَوَّلَ بَحارٍ أَوربيٍّ يَعبرُ مِنْ طَريقِ رأسِ الرَّجاءِ الصالِحِ إِلى الهندِ في بِدايَةِ القُرونِ الوسطى.

❋ ❋ ❋

يَذكُرُ لَنا ابن ماجدٍ في بَعضِ ما يَذكرُ في أحدِ كُتُبِهِ أَنَّهُ استفادَ كَثيراً مِنَ الأَراجيزِ الَّتي وضَعَها جَدُّهُ وأَبوهُ في معرفَةِ القياساتِ، وأَسماءِ الأَماكِنِ، وصِفاتِ الأنهارِ والبِحارِ، حَيثُ قامَ بِحفظِها، كَما يُشيرُ إِلى أَنَّهُ درسَ كِتابَ المَجسطي لِبَطليموس، وهو كِتابٌ يوناني

قَديمٌ في القِياساتِ الجغرافيَّةِ كانَ قَدْ عَرَّبَ مِنهُ بَعضَ أَجزائِهِ المَأمونُ بنُ هارون، كما قَرأَ كُتُباً أُخرى لِلعلماءِ العَربِ الَّذِينَ كانوا قَبلهُ في علمِ الفَلكِ والرِّياضياتِ.

وهَذهِ القِراءاتُ والمعرِفَةُ الَّتِي اكتَسَبَها هي الَّتِي مَكَّنَتهُ مِنَ السَّفرِ ورُكوبِ البَحرِ إلى الهندِ وما جاورَها مِنْ بُلدانٍ، وفي تَحديد القياساتِ البَحريَّةِ والزَّمنيَّةِ لِمواقِعِ المُدنِ والبُلدانِ السَّاحليةِ الَّتِي مرَّ بِها بِالنِّسبَةِ لِدَرجاتِ الطُّولِ والعرضِ، وتَحديدِ المَسالِكِ والطُّرقِ البَحريَّةِ لِلملاحينَ ولِلذينَ يَخوضونَ عالمَ البِحارِ، ومِنْ ثمَّ إلى اختراعِ البُوصلَةِ المِغناطيسيَّةِ الَّتِي تُمَكِّنُ السُفنَ مِنْ تَحديدِ وجهَتِها ومَعرفَةِ الاتجاهاتِ الأَربَعةِ، ولا يَخفَى اليَومَ ما لِهذِهِ البُوصلَةِ مِنْ أَثرٍ في المِلاحَةِ البَحريَّةِ والجويَّةِ والبَريَّةِ.

ويَقولُ ابنُ ماجدٍ مُشيراً إلى ابتكارِهِ لِلبُوصلَةِ: «ومِن اختراعِنا في عِلمِ البِحارِ تَركيبُ المغناطيسِ عَلى الحَكِّ بِنَفسِهِ، ولَنا فيهِ حكمَةٌ كبيرَةٌ لَمْ تُودَعْ في كتابٍ».

كَما أَشارَ في مُؤلفاتِهِ إلى حَقائِقَ وفوائِدَ لَمْ يَتوصَّلْ إليها العُلماءُ قَبلَهُ، ومِنْ ذَلِكَ ما ذَكرَهُ في كِتابِهِ الشَّهيرِ الَّذِي يَعودُ تاريخُهُ إلى عامِ (1498) ميلاديَةً، فَقَدْ أَورَدَ اثنَتي عَشرَةَ فائِدَةً هي: الإِبرَةُ المِغناطيسيَّةُ، مَنازِلُ القَمَرِ الثَمانيَةُ والعشرونَ، النُّجومُ الَّتِي تُقابِلُ الاثنينِ والثَّلاثينَ للإِبرَةِ الحَكِّ، الطُرقُ البَحريَّةُ في المُحيطِ الهندي، خُطوطُ عَرضِ بَعضِ المَرافِئِ في هَذا البَحرِ، بَحرُ العينِ الغَربي، العَلاماتُ والإِشاراتُ في البِحارِ، سَواحلُ الهندِ الغَربيَّةِ، الجُزُرُ العَشرُ الكُبرَى: جَزيرَةُ العَربِ، جَزيرَةُ القَمرِ، مَدغَشقَر، الغَور

أوفورموزا، سوقطَرةُ، سيلانُ، زُنجبارُ، البَحرينُ، الرِّياحُ المَوسميَّةُ ومُلاءَمَتُها لِلسَّفَرِ مَعَ تَواريخِها وفقاً لِحسابِ الفُرسِ، وصفُ البَحرِ الأَحمَرِ وبَعضُ الأَساطيلِ البَحريَّةِ.

ومِنْ خِلالِ هَذا الكلامِ نُدرِكُ ثَقافَةَ ابنِ ماجدٍ المُوسوعيَّةَ في عِلمِ البِحارِ، حَيثُ إنَّ الأَماكِنَ الَّتِي عَدَّدها كُلَّها قَدْ عايَنَها وشاهَدها وأَبحَرَ إِليها واطَّلعَ عَلى مَوانِئِها وسَواحِلِها وعَرَفَ شُعوبَها وسُكانَها.

❁ ❁ ❁

ابنُ ماجدٍ ـ كَغيرِهِ مِنْ عُلماءِ العَربِ المُسلمينَ ـ يَحرصُ كُلَّ الحرصِ عَلى مَرضاةِ رَبِّهِ ﷻ، وعَلى إِفادَةِ النَّاسِ مِنْ عِلمِهِ ومَعرفَتِهِ، وعَلى اكتسابِ المَعرفَةِ النَّافِعَةِ أَينما كانَ مَصدرُها عَملاً بِقولِ الرَّسولِ الأَعظَمِ ﷺ: «**الحِكمَةُ ضَالَّةُ المُؤمنِ حيثما وجدَها فَهوَ أَحقُّ بِها**»[1].

ولِهذا نَجدُهُ يُوصي ـ أَوَّلاً وقَبلَ أَيِّ شَيءٍ آخَرَ ـ مَنْ يَرغَبُ بِركوبِ البَحرِ والعَملِ فيهِ، بِتَقوى اللهِ والحرصِ عَلى الطَّهارَةِ القَلبيَّةِ والجَسديَّةِ واتِّباعِ الهُدى فَيقولُ:

«ويَنبَغي أَنَّكَ إِذا رَكبتَ البَحرَ تَلزَم الطَّهارَةَ، فَإِنَّكَ في السَّفينَةِ ضَيفٌ مِنْ أَضيافِ الباري ﷻ فَلا تَغفَلْ كَرَمَهُ».

كَما قالَ في أرجوزَتِهِ «نادرَةِ الأَبدالِ»:

قَليلٌ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ أَراهُمُ عِفافٌ يَرونَ الحَقَّ خَيرَ المَآثِرِ

---

(1) العقيلي، رواه أبو هريرة، في تهذيب التهذيب، وهو منكر.

أَي: إنَّ حُبَّ العِلمِ والمَعرفَةِ، شَغَلَهُ عنْ حُبِّ النِّساءِ ومُفاكَهَتِهِنَّ وعَنِ الانشغال في مُلهياتِ الدُّنيا وشَهواتِها الزَّائِفَةِ.

ومِنْ ثمَّ يَتحَدَّثُ ابنُ ماجدٍ عَنِ الصِّفاتِ والسُّلوكِ الَّذِي يَنبَغي أَنْ يَتَوَفَّرَ في الرُّبانِ النَّاجِحِ، فَيقولُ:

«يَنبَغي أَنْ يَكونَ عَالِماً بِالأَشياءِ، عَزَّاماً فَتاكاً، عادلاً لا يَظلمُ أَحداً، لا يُغضِبُ التُّجارَ، كَثيرَ الاحتمالِ عَلَى الهِمَّةِ، صَبَّاراً مَقبولاً بينَ النَّاسِ، لا يَسعَى فيما لا يصلحُ لَهُ، أَديباً لَبيباً، وإِلَّا ليسَ هوَ مُعلمٌ بِالقاعِدَةِ».

ولِهَذا يَحضُّ في أرجوزَتِهِ المَرءَ إِنْ أَرادَ أَنْ يُصبِحَ ربَّاناً ماهِراً وناجِحاً عَلى السَّهرِ والتَّدقيقِ ومَشورَةِ أَهلِ العِلمِ والصَّبرِ وكتمانِ السِّرِّ فَيقولُ:

تَأَمَّلْ وشاوِرْ واسهَرِ اللَّيلَ واعزمْ وحَقِّقْ ودَقِّقْ واحفَظِ السِّرَّ

واصبِرْ وأَجمِلْ ما سَمعتَ لِتَسلَم لِتَبقَى رَئيساً في الرِّجالِ مُقَدَّمَا

يَرى بَعضُ المُستَشرقينَ أنَّ كُتُبَ ابنِ ماجدٍ تَربو عَلى الأَربعينَ كِتاباً، وأَشارَ آخرونَ إِلى أَنَّها بِحدودِ الثَلاثينَ، مِنها:

- كِتابُ الفَوائِدِ في أُصولِ علمِ البَحرِ والقَواعِدِ.
- حاويَةُ الاختصارِ في أُصولِ عِلمِ البِحارِ.
- فَصلٌ في مَعرفَةِ دَيرَةِ القِطبِ مِنْ رؤوسِ بَرِّ العَربِ.
- فَصلٌ في مَعرفَةِ البَلدَةِ إِذا كانَ مِنْ داخِلِ البابِ (بابِ المَندَبِ).

ـ فَصلٌ في مَعرفَةِ البَلدَةِ عَلى جاه عَشرةٍ.

ـ فَصلٌ في أَرضِ جوزرات.

ـ ومَجموعَة فُصولٍ أُخرى تُعتَبرُ مِنْ أَهمِّ ما كُتبَ في مَطلَعِ القُرونِ الوسطَى في علمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، هذا فَضلاً عَنِ الأَراجيزِ والقَصائِدِ الشِّعريَّةِ في هَذا المضمارِ، ومنها:

ـ قَصيدةٌ في علمِ البِحارِ.

ـ الأُرجوزَةُ الهاديَةُ في علمِ البِحارِ.

ـ أُرجوزَةُ قبلَةِ الإِسلامِ في جَميعِ الدُّنيا.

ـ القَصيدةُ المَكيَّةُ.

ـ أُرجوزَةٌ في عدَّةِ الأَشهرِ الرُّوميَّةِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا اشْتُهرَ ابنُ ماجدٍ؟

2 ـ ماذا وضَعَ ابنُ ماجدٍ؟

3 ـ ماذا اعتَبَرَ الباحثونَ الأَوربيونَ ابنَ ماجدٍ؟

4 ـ إِلى أَينَ تَنَقَّلَ ابنُ ماجدٍ في صغرِهِ؟

5 ـ إِلى ماذا أَشارَ جيمسُ بنُ نَسيبٍ؟

6 ـ ماذا قادَ ابنُ ماجدٍ مِنْ سَواحلِ أفريقية إِلى سَواحلِ الهندِ؟

7 ـ ما هيَ الصِّفاتُ الَّتِي يَنبغي أَن يَتَحلَّى بها الرُّبانُ بِرأي ابنِ ماجدٍ؟

8 ـ اذكُرْ أَهمَّ مُؤلَفاتِ ابنِ ماجدٍ.

سُلَيمانُ التَّاجرُ
سِندِبادُ البِحارِ[1]
(٢٣٢هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

سُليمانُ التَّاجرُ، سِندبادُ البِحارِ، الرَّحالَةُ البحَّارُ الَّذي زَخرَتْ رِحلَتُهُ البَحريَّةُ بِمُشاهداتِهِ الغَريبَةِ والعَجيبَةِ، واحدٌ مِنْ رُبانِ البِحارِ العَربِ المَشهورينَ والمَعروفينَ الَّذِينَ أَسهَموا في ارتقاءِ المَعارِفِ والمَعلوماتِ في عِلمِ الملاحَةِ البَحريَّةِ وفي نُشوءِ أَدبِ الرِّحلاتِ، حَيثُ إِنَّ رِحلاتِهِ إِلى بلادِ الهندِ والصِّينِ كانَ لَها عَظيمُ الأَثرِ في قِصصِ أَلفِ لَيلَةٍ ولَيلةٍ، وقِصَصِ السَّندبادِ البَحريِّ وغَيرِها مِنَ القِصَصِ والرِّواياتِ والحِكاياتِ الَّتِي امتَزَجَتْ بِالخَيالِ والأسطورَةِ في العَصرِ الحَديثِ.

وتَأتي الأَهميَّةُ العِلميَّةُ لِرحلَةِ البَحارِ العَربيِّ سُليمانَ التَّاجِرِ مِنْ خلالِ وصفِهِ لِلأَماكِنِ، والبحارِ، والشَّواطِئِ الَّتِي زارَها، وكَذَلِكَ مِنْ خِلالِ وصفِهِ أَيضاً لِلرياحِ والأَنواءِ

(1) لم يذكر المؤرخون تاريخ ميلاده ووفاته.

والأَمطارِ، وحَركَةِ المَدِّ والجَزرِ لِلبِحارِ الَّتِي عَبَرَها ومَرَّ بِها بِدِقَّةٍ علميَّةٍ مُتناهيَةٍ شَهدَ لَهُ بِذَلِكَ عُلَماءُ البِحارِ الأُوربيونَ في العَصرِ الحَديثِ.

كَما أَنَّ رِحلَةَ بَحارِنا ـ سِندباد البحارِ ـ لَمْ تَخلُ مِنَ الطَّرافَةِ والحِكمَةِ وهوَ يَصفُ فيها عاداتِ وتَقاليد الشُّعوبِ الَّتِي شَاهدَها ومَرَّ بِها في الهِندِ والصِّينِ، ومَكانَةَ الجالياتِ العَربيَّةِ، وأَوضاعَ المُسلمينَ فيها، فَقَدْ تَداخَلَ عِلمُ البِحارِ مَعَ عِلمِ التَّاريخِ وعلمُ الاجتماعِ في رِحلَتِهِ هَذهِ.

ولَكنْ تَبقَى القيمَةُ العِلميَّةُ الحَقيقيَّةُ لِرحلَةِ سُليمانَ التَّاجِرِ مِنْ خِلالِ ما دَوَّنَهُ مِنْ ظَواهرَ طَبيعيَّةٍ وجُغرافيَّةٍ كانَتْ بِمَثابَةِ الدَّليلِ والمُرشدِ لِلبَحارَةِ الَّذِينَ أَتوا بَعدهُ في خَوضِ عالَمِ البِحارِ إِلى تِلكَ الأَماكِنِ والأَصقاعِ والبُلدانِ.

ولِهذا وصَفَهُ الدَّارسونَ والباحِثونَ بِأَنهُ سِندبادُ البِحارِ، وهَوَ حَفيٌّ بِهذا اللَّقبِ وخَليقٌ بِهِ كَما سَيَمرُّ مَعنا في حِكايَةِ قِصَّتِهِ.

فَمَنْ هُوَ سُليمانُ التَّاجِرُ؟

❁ ❁ ❁

لَمْ تَروِ لَنا كُتُبُ التَّاريخِ شَيئاً عَنْ تَفاصيلِ حياتِهِ أَو عَنْ ولادَتِهِ أو نَشأَتِهِ، وكُلُّ ما ذُكِرَ عَنهُ أَنَّهُ بَحارٌ عَربيٌّ مِنَ العِراقِ عاشَ في القَرنِ الثَّالثِ الهجريِّ، وأَنَّهُ قامَ بِرحلَتِهِ البَحريَّةِ مِنْ سَواحلِ الخليجِ العَربيِّ إِلى الهندِ والصِّينِ عامَ (232) هجريَّةً، وأَنَّهُ قامَ بِتَدوينِ رِحلَتِهِ، ثُمَّ أَتَى مِنْ بَعدهِ رَحالَةٌ يُدعَى أَبا زَيدٍ السِّيرافيَّ كَتَبَ تَفاصيلَ رِحلَةِ ومُشاهداتِ سُلَيمانَ

التَّاجرِ، وعُرفَتْ بِرحلَةِ أَبي زَيدٍ السِّيرافيِّ. وبِناءً عَلى ذَلِكَ يَكونُ السِّيرافيُّ قَدْ كَتَبَ رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ كَما رَواها لَهُ سُليمانُ ذاتُهُ في ذَلِكَ الوَقتِ.

ويَذكُرُ المُؤرِخُ المَسعوديُّ أَنَّهُ التَقَى بِالسِّيرافيِّ في مَدينَةِ البَصرة في العراقِ عامَ (303) هجريَّةً، وأَفادَنا المَسعوديُّ بِذَلِكَ، وأَنَّهُ عَرفَ اسْمَ السِّيرافيِّ الكَاملَ وهوَ: أَبو زَيدٍ الحَسنُ بنُ يَزيدَ بنِ عَمرَ بنِ زَيدٍ بنِ مُحَمَّدٍ بنِ مَزدٍ بنِ ساسياد، وأَصلُهُ مِنْ سيرف، لَكنَّهُ غادرها وأَقامَ في البَصرَةِ قبلَ عامِ (232) هجريَّةً. ووَصَفَهُ المَسعوديُّ بِأَنَّهُ مِنْ أَهلِ التَّحصيلِ والتَّميزِ.

فَكلامُ المَسعوديِّ يُوحي لَنا أَنَّ أَبا زَيدٍ السِّيرافيَّ كانَ عالِماً وأَديباً ومُتَتَبِّعاً لِشُؤونِ الكُتُبِ، ولَمْ يَكُنْ مُغامراً أَو تاجراً أَو بَحاراً جَواباً لِلآفاقِ، أَو خواضاً لِعالَمِ البِحارِ، وإِنَّما كَتَبَ رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ وهَذَّبَها حَسَبَ ما رَواها لَهُ سُليمانُ التَّاجِرُ بِلسانِهِ وبَيانِهِ.

يَصفُ السِّيرافيُّ رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ، والمَراحلَ البَحريَّةَ بينَ سيراف ومسقط، ومِنْ هُناكَ إِلى مالابار، ثُمَّ عَبورَهُ جَزيرةَ سيلانَ وخليجَ البَنغالِ حَتَّى جَزيرَةِ لنجبالوس، ومِنْ هُناكَ إِلى كالابارَ عَلى سَاحلِ الملايو الغَربيِّ، ثُمَّ إِلى جَزيرَةِ تيومن إِلى الجَنوبِ الغَربيِّ مِنْ مَلقا، ومِنها إِلى سايجونَ ثُمَّ إِلى جَزيرَةِ هانيان، فَإِلى أَرضِ الصِّينِ في ميناءِ خانَقوا أَو كانتون.

جَمَعَ السِّيرافي رِحلَةَ سُليمانَ التَّاجرِ في هَذا الكتابِ الشَّائقِ والمُمتعِ بِأسلوبِ السَّردِ القَصصيِّ المَمزوجِ بِالرِّواياتِ الَّتِي تُمَثِّلُ مُشاهداتِ سُليمانَ في عالَمِ البِحارِ وما رآهُ مِنْ

حَيواناتٍ بَحريَّةٍ، وما وصَفَهُ بِدقَّةٍ لِلطُّرقِ التِّجاريَّةِ البَحريَّةِ، والعاداتِ والنُّظمِ، مَعَ ذكرِ المُنتَجاتِ، ودراسةٍ لِلعلاقاتِ الصِّينيَّةِ الإِسلاميَّةِ، والحَركَةِ التِّجاريَّةِ في مَوانئ البِلادِ الَّتي نَزلَ فيها.

❋ ❋ ❋

انطَلَقَ سُليمانُ التَّاجرُ في رِحلَتِهِ مِنْ مَدينَةِ سيراف الواقعَةِ عَلى السَّاحلِ الفارسيِّ في الخَليجِ العَربيِّ، وأَبحرَ في سَفينَتِهِ إِلى مَرفئ مَدينَةِ مَسقَط عَلى سَواحلِ عُمانَ المُطِلَّةِ عَلى بَحرِ العَربِ.

ومَدينَةُ سيراف في بِلادِ فارس، مِنْ مُدنِ سابور، كانَ مُعظَمُ سُكانِها مِنَ العَربِ، ويَذكرُ الحَميريُّ في كِتابِهِ «الرَّوضِ المِعطارِ في خَبرِ الأَقطارِ»:

«إِنَّ أَهلَها كانوا مُولَعينَ بِكسبِ المالِ، وكانوا مِنْ أَكثَرِ عبادِ اللهِ تَغَرُّباً ومَخراً إِلى الآفاقِ، حَتَّى إِنَّ الواحدَ مِنهُمْ يَتَجَوَّلُ عشرينَ عاماً لا يَرجعُ إِلى أَهلِهِ ولا يَكتَرثُ بِمنْ خَلفَهُ، كما كانَ أَهلُها يُنفقونَ كَثيراً في عمارةِ الأَبنيَةِ وضروبِ التَّحسينِ والتَّحصينِ، وفواكِهُهُمْ ومياهُهُمْ تَصلُ إِليهِمْ مِنْ جَبلٍ مُشرفٍ عَليهِمْ يُطلُّ عَلى البَحرِ، وليسَ فيها زَرعٌ ولا ضَرعٌ، وهيَ شَديدةُ الحرِّ جداً، وهيَ مَرفأٌ لِلسُّفنِ، ومِنها يَتَجَهَّزُ التُّجارُ إِلى عَدن وعُمانَ والصِّينِ والهندِ، حيثُ كانَتِ البَضائعُ تَأتيها مِنْ بِلادِ العراقِ والشَّامِ ومنْ بلادِ فارس والتُّركِ وغَيرِها، ويُحملُها التُّجارُ إِلى الآفاقِ».

أَمَّا مَدينَةُ مَسقَط فَهيَ مِيناءٌ عَلى السَّاحلِ العُماني كانَ يَستَقي مِنْها أَربابُ المراكبِ

الماءَ مِنْ آبارٍ هُناكَ عَذبةٍ. ويقولُ صَاحبُ كتابِ «أَخبارِ الصِّينِ والهندِ»: «إنَّ المراكبَ القَادمَةَ مِنْ داخلِ الخليجِ العَربيِّ كانَتْ تَتزوَّدُ بِالماءِ منْ (مسقط)، وهيَ في طَريقِها إلى بَحرِ الهندِ. وسُميَتْ (مسقطاً) و(المسقط) لأنَّ المراكبَ كانَتْ تَسقُطُ مِنْها إلى عَرضِ البَحرِ، أي: تُغادرُ السَّاحلَ، وتَنطلقُ إلى عرضِ البَحرِ في طريقِها إلى الهندِ والصِّينِ».

❋ ❋ ❋

مِنْ مَسقَط اتَّجَهَ سُليمانُ التَّاجرُ مُبحراً إلى الهندِ والصِّينِ، مارّاً بِالجُزرِ والخُلجانِ والمَوانِئِ الَّتِي تَقَعُ عَلَى طَريقِ وجهَتِهِ، وقَدْ وصَفَ مُشاهداتِهِ وما رَآهُ مِنْ إنسانٍ وحَيوانٍ ونَباتٍ وجَمادٍ، فَفي الفَصلِ الأَوَّلِ مَثَلاً ـ وهوَ بِعنوانِ «باب في البَحرِ الَّذِي بينَ بلادِ الهِندِ والسِّندِ ونَموز وماغوز، وجبالِ قاف، وبلادِ سَرنديب» يقولُ:

«وفي هَذا البَحرِ سَمكَةٌ اصْطَدْناها يكونُ طُولُها عِشرينَ ذِراعاً، فَشَقَقْنا بَطنَها فَأَخْرَجْنا مِنْها أيضاً سَمكةً مِنْ جِنسِها، ثُم شَقَقْنا بَطنَ الثَّانيةِ فَإذا في بَطنِها مِثلُها، وكُلُّ هَذا حَيٌّ يَضْطَربُ يُشبِهُ بَعضُهُ بعضاً في الصُّورةِ».

وفي فَصلٍ بِعنوانِ: «أَخبارِ بِلادِ الهندِ والصِّينِ ومُلوكِها» يقولُ: «أهلُ الهندِ والصِّينِ مجُمعونَ على أَن مُلوكَ الدُّنيا المَعدودينَ أربعةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَعدونَ مِنَ الأَربعةِ:

مَلكُ العَربِ، وهوَ عِندَهُم إجماعٌ لا اختلافَ بَينَهُم فيهِ أَنَّهُ مَلكُ أَعظمِ المُلوكِ وأَكثرُهُمْ مالاً وأَبهاهُم جَمالاً، وأَنَّهُ مَلكُ الدِّينِ الكَبيرُ الَّذِي ليسَ فَوقَهُ شَيءٌ.

ثُمَّ يُعدُّ مَلكُ الصِّينِ نَفسَهُ بَعدَ مَلكِ العَربِ، ثُمَّ مَلكُ الرُّومِ، ثُمَّ بَلهرا مَلكُ الهندِ».

فَالصِّينيونَ كانوا يَعتَقدونَ بِعظمَةِ العَربِ والمَكانَةِ السَّاميَّةِ الَّتِي يَتَبوَؤُها خَليفَةُ المُسلمينَ بينَ مُلوكِ الأَرضِ جَميعاً في تِلكَ الفَترَةِ؛ لأَنَّ العلاقاتِ بينَ العَربِ المُسلمينَ والصِّينيينَ قَديمَةٌ جداً، وكانَ ـ الخَليفةُ ـ أَوَّلَ سَفيرٍ لِلعربِ في بِلادِ الصِّينِ مُنذُ العَهدِ الأُمَويِّ لِرِعايَةِ شُؤُونِ الجاليَةِ العَربيَّةِ والإِسلاميَّةِ هُناكَ، فَقَدْ تَحدَّثَ عَنْ تَواجُدِ التُّجارِ العَربِ بِكثرَةٍ في بِلادِ الهندِ والصِّينِ، وغالبُهُمْ مِنَ العِراقِ والجزيرَةِ العَربيَّةِ، كما أَنَّ بيتَ المالِ في مَدينَةِ خانقوا السَّاحليةِ في الصِّينِ تَحتَ رِعايَةِ والٍ عَربيٍّ مُسلمٍ يُعَينُهُ إِمبَراطورُ الصِّينِ، حَتَّى تَجتَمعَ البَضائِعُ القادمَةُ مِنَ السُّفنِ الأُخرى المُحَمَّلَةِ مِنَ الهندِ والمَنطقَةِ العَربيَّةِ، فَتُعرَضُ جَميعُ تِلكَ البَضائِعِ عَلى التُّجارِ الصِّينيينَ القادمينَ مِنْ جَميعِ المَناطِقِ في بِلادِهِمْ.

ويُسهبُ الرَّحالَةُ سُليمانُ التَّاجرُ في ذِكرِ فَواكِهِ تِلكَ البُلدانِ وأَديانِهِمْ وعاداتِهِمُ الغَريبَةِ، كَحرقِ الزَّوجاتِ في الهندِ بَعدَ مَوتِ أَزواجِهن. ومِمَّا ذَكَرهُ أَنَّ مَلكَ الصِّينِ في تِلكَ الأَثناءِ كانَ لا يَقبَلُ أَيَّ شَكوى شَفَهيَّةٍ، بَلْ يَجبُ أَنْ تكونَ مَكتوبَةً بِشَكلٍ مُفَصَّلٍ وأُسلوبٍ جَميلٍ، حيثُ إِنَّ غالبيَّةَ أَهلِ الصِّينِ يَعرفونَ القِراءَةَ والكِتابَةَ.

كما تَحَدَّثَ عَنْ شَرابٍ يَشربُهُ أَهلُ الصِّينِ مِنَ العشبِ المَغلي بِالماءِ ويُسَمونَهُ (ساخ) أَي: شَرابُ الشَّاي، وبِهذا يَكونُ أَوَّلَ عالِمٍ عَربيٍّ مُسلمٍ يَذكُرُ الشَّاي في وثيقةٍ رَسميَّةٍ.

كَما يَروي أَنَّ أَوَّلَ جَوازاتِ سَفرٍ اسْتُخدِمَتْ في الصِّينِ، حَيثُ كانَ الولاةُ يُصدرونَ أَوراقاً لِلمُسافرينَ تَتَضمَّنُ أَسماءَهُمْ وأَعمارَهُمْ، وأَسماءَ وأَعمارَ مَنْ مَعَهُمْ، وتتَضمَّنُ الأَوراقُ تَوصيَةً مِنْ إمبراطورِ البِلادِ بِتَسهيلِ سَفَرِهِمْ.

كَما ذَكَرَ عَنْ أَهلِ الهندِ أَنَّ الشَّخصَ الَّذِي يُريدُ الزَّواجَ يَتَعَيَّنُ عَليهِ قَتْلَ رجلٍ مِنَ الأَعداءِ، فَمَنْ قَتلَ رجلاً يَتزوَّجُ واحدةً، ومَنْ قَتلَ اثنينِ يَتَزوَّجُ اثنتينِ، ومَنْ قَتلَ خَمسينَ رَجلاً يَتَزَوَّجُ خَمسينَ زوجَةً.

❋ ❋ ❋

ووصفَ سُليمانُ التَّاجرُ سَمَكَ الحوتِ الكَبيرِ فَقالَ:

«رَأَيْتُ سَمكاً مثلَ الشِّراعِ، رُبَّما رَفعَ رأَسَهُ فَتراهُ كالشَّيءِ العَظيمِ، ورُبَّما يَقَعُ في الماءِ مِنْ فيهِ، فَيكونُ كَالمنارَةِ العَظيمَةِ. فَإِذا سَكنَ البَحرُ اجتَمَعَ السَّمكُ فَحواهُ بِذَنَبِهِ، ثُمَّ فَتحَ فاهُ فَيُرى في جَوفِهِ يَفيضُ كَأَنَّهُ يَفيضُ مِنْ بِئرٍ. والمَركبُ الَّتِي تَكونُ في البَحرِ تَخافُهُ، فَهُمْ يَضربونَ في اللَّيلِ بِنواقيسَ خاصَّةٍ مَخافَةَ أَنْ يتكئَ عَلى المَركبِ فَيُغرِقهُ».

ويَتَحدَّثُ عَنْ أَنواءِ البَحرِ فَيقولُ:

«ورُبَّما رُئيَ في هذا البَحرِ سَحابٌ أَبيضُ يُظِلُّ المَركبَ فَيَشرَعُ مِنهُ لِسانٌ طَويلٌ، رَقيقٌ، حَتَّى يَلصقَ ذَلكَ اللِّسانُ بِماءِ البَحرِ، فَيغلي لَهُ ماءُ البَحرِ، فلا أَدري أَيستَقي السَّحابُ مِنَ البَحرِ أَمْ ماذا؟».

أَمَّا المَعلوماتُ العِلميَّةُ الَّتِي تَتَعلَّقُ بِعلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ فَقَدْ أَورَدَ مِنها طَرَفاً هامّاً، تُعتبَرُ مَرجعاً لِمَنْ أَرادَ خَوضَ تِلكَ البِحارِ وسُلوكِ طُرقِ السَّلامَةِ والنَّجاةِ فيها، فَقَدْ كَتَبَ مَعلوماتٍ وبَياناتٍ عَنْ حَركَةِ الرِّياحِ والأَنواءِ والأَمواجِ، وطَريقَةِ تَفاديها وطُرقِ الأَسفارِ إِلى الصِّينِ والهندِ.

وقامَ سُليمانُ التَّاجرُ بِتَحديدِ المَسافاتِ والقياساتِ بِالفَراسخِ والأَيام واللَّيالي بينَ ميناءِ مَدينَةِ سيراف، وميناءِ مَدينَةِ خانقوا في الصينِ قِياساً علميّاً دَقيقاً، وتَحدَّثَ عَنْ مَمالِكِ الهندِ الرَّئيسيَّةِ والصَّغيرَةِ، وعَنْ تَبايُنِ التَّقاليدِ بينَ الصِّينِ والهِندِ، وعَنِ التَّنظيماتِ السِّياسيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ في الصِّينِ، وقارَنَ بينَ أَنهارِ الهندِ والصِّينِ وبينَ نَهرَي دَجلَةَ والفُراتِ، وتَحدَّثَ عَنِ الفُروقِ الاجتماعيَّةِ بينَ تَقاليدِ وعاداتِ سُكانِ الهندِ وسُكانِ الصِّينِ فيما يَخصُّ الزَّواجَ، والطَّعامَ، والعُقوباتِ والحبسَ والقَضاءَ، والعبادَةَ، ومنازلَ السَّكَنِ، وغيرَها مِنَ العاداتِ والتَّقاليدِ.

ومِنَ المُفيدِ ذِكرُهُ في خِتامِ حَديثِنا عَنْ سُليمانَ التَّاجرِ ورِحلَتِهِ أَنْ نَذكُرَ أَنَّ المُستَشرِقَ الفَرَنْسيَّ «فيرن» قَدْ فَحصَ ما أَورَدَهُ سُليمانُ التَّاجرُ في رِحلَتِهِ عَلى ضَوءِ الخَرائِطِ الحَديثَةِ، فَوَجدَها مِنْ حَيثُ الدِّقَّةُ والأَمانَةُ العِلميَّةُ بِمكانَةٍ تُذكَرُ لَهُ عَلى مَرِّ العُصورِ والأَجيالِ. يَقولُ «فيرن» وهو يَمدحُ سُليمانَ التَّاجرَ، ويَحمدُ مِنهُ جُهدَهُ العلميَّ: «وهو خَيرُ مِثالٍ لِلتُّجارِ العَربِ والفُرسِ الَّذِينَ تَوَجَّهوا إِلى الصِّينِ».

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ مَنْ يَكونُ سُليمانُ التَّاجرُ؟

2 ـ مَنْ هوَ أَبو زَيدٍ السِّيرافيُّ؟

3 ـ بِماذا كانَ أَهلُ سيراف مولَعينَ، وماذا كانوا يَفعلونَ؟

4 ـ لِماذا سُميَتْ مَدينَةُ مَسقَط بِهذا الاسمِ؟

5 ـ بِماذا كانَ يَعتَقِدُ الصِّينيونَ؟

6 ـ ماذا كانَ ولاةُ الصِّينِ يُصدرونَ؟

7 ـ ماذا حَدَّدَ سُليمانُ التَّاجرُ؟

8 ـ كيفَ وجدَ فيرن ما أَوردَهُ سُليمانُ التَّاجرُ؟

سُـلـيمانُ المَهريُّ
مُعَلِّمُ البِحارِ
(. . . ـ 961هـ)

أَعزَّائي وأَحبَّائي:

سُليمانُ المَهريُّ، مُعَلِّمُ البِحار، وتِلميذُ أسدِ البِحارِ، البَحَّارِ ابنِ ماجدٍ النَّجديِّ، واحدٌ مِنَ البَحَّارَةِ العَربِ الَّذِينَ تَركوا لَنا بصماتٍ واضِحةً في عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، ومِن عُلماءِ البِحارِ الَّذِينَ جابوا السَّواحِلَ، ووَضَعوا الأَقيسَةَ بينَ السَّواحلِ والبِحارِ البَعيدَةِ، وسارَ عَلى نَهجِ أُستاذِهِ ابنِ ماجدٍ في التَّأليفِ والتَّصنيفِ في عالمِ البِحارِ، وفي عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، واسْتَدركَ ما لَمْ يُكملْهُ أُستاذُهُ ابنُ ماجدٍ في هَذا المِضمارِ.

سُليمانُ المَهريُّ، الَّذِي لَقَّبَهُ الباحثونَ بِـ «مُعَلِّمِ البِحارِ»، هوَ خَليقٌ بِهذا اللَّقبِ؛ لأَنَّهُ أَضافَ مَعلوماتٍ جَديدَةً وهامَّةً إلى مَنظومَةِ عِلمِ البِحارِ الَّتِي بَدأَ بِها سابِقوهُ، ولِهذا يأتي مِنْ حَيثُ التَّرتيبُ الزَّمَنيُّ والعِلميُّ ثالِثَ البَحَّارَةِ العُلماءِ في تاريخِ العَربِ والإِسلامِ، الَّذِينَ أَسهموا إِسهاماً كَبيراً في تَأسيسِ عِلمِ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، ووَضَعوا اللَّبناتِ الأُولى لِبنائِهِ مِنْ خِلالِ مُؤلفاتِهِ الهَامَّةِ الَّتِي أَشادَ بِها المُستَشرقونَ والباحثونَ الأُوربيونَ في العَصرِ الحَديثِ.

رَحلَ سُليمانُ المَهريُّ في سَبيلِ المَعرفَةِ البَحريَّةِ، وأَبحرَ إلى البلادِ والسَّواحلِ البَعيدَةِ في الهندِ والصِّينِ وأَندونيسيا، وزارَ شَواطِئَها وجُزُرَها، وأَجرى المَسافاتِ الجُغرافيَّةَ بينَها، ووَصَفَ خُطوطَ المِلاحَةِ عَلى طولِ وعَرضِ هَذِهِ السَّواحلِ والجُزُرِ، وقامَ بَتَصحيحِ بَعضِ الأَخطاءِ الَّتِي غَفلَ عَنها أُستاذُهُ ابنُ ماجدٍ، وقامَ بِوَصفِ الأَنواءِ، وأَحوالِ النُّجومِ والرِّياحِ، ووَصفِ الطُّرقِ البَحريَّةِ بينَ بِلادِ العَربِ والهندِ والصِّينِ وجاوةَ (أندونيسيا حالياً).

فَمَنْ هوَ سُليمانُ المَهريُّ، مُعَلِّمُ البِحار؟

❁ ❁ ❁

هُوَ سُليمانُ بنُ أَحمدَ بنِ سُليمانَ المَهريُّ القُضاعيُّ، ربانٌ بَحريٌّ، وعالِمٌ فَلَكيٌّ اشتُهرَ في القرنِ التَّاسعِ والعاشِرِ الهجريِّ، الخامسِ والسادسِ عَشرَ الميلاديينِ.

ولِدَ سُليمانُ المَهريُّ في بَلدَةِ سقطَرَةَ مِنْ بِلادِ اليَمنِ، حَيثُ يَمتَدُّ نَسَبُهُ إلى مَهرَةَ بنِ حَيدان الَّذِي سَكَنَ مَنطقَةَ المهرَةِ في بلادِ اليَمنِ قَديماً، وإليهِ تُنسَبُ الإِبلُ المهريَّةُ.

وبِلادُ المَهرةِ مِنْ أَرضِ حَضرموتَ، وهيَ منطقَةٌ هامَّةٌ في بِلادِ اليَمنِ، وتُمَثِّلُ البَوابَةَ الشَّرقيَّة لِبلادِ اليَمنِ مِنْ جِهة بِلادِ عُمان.

جاءَ في أَحدِ المَواقِعِ الإلكترونيَّةِ عَلى شَبَكةِ الإِنترنيتِ:

«إنَّ قَبائِلَ المَهرةِ ـ الَّتِي يَرجعُ إليها نَسَبُ سُليمانَ المهريِّ ـ قَبائِلُ عَربيَّةٌ مِنْ عَربٍ قِحاحٍ[1]، يَنحدرُ أَصلُها مِنْ حمْيَر وقَحطانَ، وسُميَت «المَهرةَ» نسبَةً إلى (مهرةَ بنِ

(1) عرب قحاح: لم يدخلوا الأمصار ولم يختلطوا بأهلها.

حيدان بنِ قُضاعَةَ الحَميريِّ)، ولَهمْ لُغَةٌ تُعرَفُ بِلُغَةِ المهرةِ، وهيَ لُغَةُ التَّخاطُبِ إلى جانبِ اللُّغَةِ العَربيَّةِ، وتُعتَبرُ اللُّغةُ المهريَّةُ أَقدمَ لُغةٍ في الجزيرَةِ العَربيَّةِ، وهيَ لُغَةُ العَربِ الجنوبيينَ قَديماً.

ويَمتازُ المهرَةُ بِالصِّدقِ والأَمانَةِ وكرمِ الضَّيفِ، وبِمُعاملَةِ الغَريبِ بالحُسنَى لِكَونِهِ بَعيداً عَنْ أَهلِهِ وبَني قَومِهِ، والمُسافِرُ في طَريقِ بِلادِ المهرةِ لا يَحتاجُ إلى زادٍ، أَو إلى مالٍ لأَنَّ المهرةَ مِنْ عاداتِهِمْ إكرامُ الضَّيفِ عندَما يَكونُ مارّاً في بِلادِهِمْ، وعِندَ كُلِّ مَسجدٍ يوجَدُ بيتٌ لِلضُّيوفِ في كُلِّ مَناطِقِ المَهرةِ.

ومَنْ يَقرأُ عَنْ تاريخِ المَهرةِ في الجاهليَّةِ، وفي صَدرِ الإِسلامِ، وفي العَهدينِ الأُمويِّ والعَباسيِّ، يَسْتَغربُ بَلْ يَندَهشُ لِكَثرَةِ أسماءِ الرِّجالِ مِنَ المَهرةِ الَّذِينَ بَرزوا في مَجالاتٍ عَديدَةٍ، كالجِهادِ والسِّياسَةِ والفِقهِ والعُلومِ المُختَلفَةِ. فَمنهُمُ القائِدُ المُجاهدُ تَميمُ بنُ فَرعٍ، والصَّحابيُّ الجَليلُ زهيرُ بنُ قرضم، وذو الوزارَتينِ مُحَمَّدُ بنُ عَمارٍ المَهريُّ، وعالِمُ الرِّياضياتِ ابنُ السَّمحِ، والشَّاعرةُ الجاهليَّةُ خُويلةُ المَهريَّةُ، وعالِمُ اللُّغَةِ العَربيَّةِ بَعدَ ـ أَبي الأَسودِ الدُّؤَليِّ ـ عَنبَسَةُ بنُ عَيلانَ، ومِنهُمْ سُليمانُ المَهريُّ عالِمُ البِحارِ.

❋ ❋ ❋

كانَ المَهرةُ ـ الَّذِينَ يُنسَبُ إِليهِمْ سُليمانُ المَهريُّ ـ مِنْ أَشَدِّ الأَقوامِ العَربيَّةِ ذَكاءً ومعرفَةً بِأَنسابِ العَربِ في الجاهليَّةِ والإِسلامِ. ويَذكرُ أَبو البَقاءِ الحليُّ في كِتابِهِ «المناقِبِ المَزيديَّةِ

في أَخبارِ الملوكِ الأَسَديَّةِ» حِكايَةً رواها القاضي ابنُ قُدامَةَ عَنْ يَزيدَ بنِ شَيبانَ بنِ عَلقمةَ بنِ زُرارَةَ الدَّارَميِّ عَنْ ذَكاءِ المَهرَةِ وعِلمِهِمْ بِأَنسابِ العَربِ، نَذكُرُها بِتَصَرُّفٍ يَسيرٍ:

خَرجَ يَزيدُ بنُ شَيبانَ بنِ عَلقَمَةَ بنِ زُرارةَ الدَّارميُّ حَاجّاً، قالَ: فَلَمَّا شَارَفتُ البَلدَ رأَيتُ رَكباً عَلى إِبلٍ عِتاقٍ، في وسَطِهِ شَيخٌ يَحفُّونَ بِهِ، فَعدلتُ إِليهِمْ، فَسَلَّمتُ عَليهِمْ، وبَدأَتُ بِالشَّيخِ، ثُمَّ تَأَملتُهُمْ فَلمْ أَعرفْهُمْ، فَقلتُ:

ـ مِمَّنِ القَوم؟

فَأَراموا هَيبةً لِلشَّيخِ وانتِظاراً لِجوابِهِ، فَقالَ الشَّيخُ:

ـ مِنْ مَهرانَ بنِ حيدَةَ بنِ عَمرو بنِ الحافِ بنِ قُضاعَةَ.

فَقلتُ: حَيَّاكُمُ اللهُ، ثُمَّ انصَرفتُ.

فَصاحَ إِليَّ: قِفْ أَيُّها الرَّجلُ!

فَوَقَفتُ، فَقالَ: سَأَلتَنا فَأَجبناكَ. وإِنَّ العَربَ قَبائِلُ، فَمِمَّنْ أَنتَ؟

فَقلتُ: مِنْ أَكرمِ العَربِ.

قالَ: فَإِنَّ العَربَ بُنيَتْ عَلى أَربَعِ أَركانٍ: مُضَر، ورَبيعَةَ، واليَمنِ، وقُضاعَةَ. فَمِنْ أَيِّ الأَركانِ أَنتَ؟

قُلتُ: مِنْ مُضَر.

قالَ: أَمِنَ الأَرحاءِ أَمْ مِنَ الفُرسانِ؟

فَعَلمتُ أَنَّ الأَرحاءَ خندفٌ، وأَنَّ الفُرسانَ قَيسٌ، فَقلتُ: مِنَ الأَرحاءِ.

قالَ: أَفَمِنَ الأَرنَبَةِ أَمْ مِنَ الجُمجَمَةِ؟

فَعلمتُ أَنَّ الأَرنَبَةَ مدرَكَةٌ وأَنَّ الجُمجمَةَ طابِخَة، فَقلتُ: مِنَ الجُمجَمةِ.

قالَ: إِذاً أَنتَ مِنْ طابخَة؟

قُلتُ: أَجَل.

قالَ: أَفَمنَ الصَّميمِ أَمْ مِنَ الوَسيطِ؟

فَعلمتُ أَنَّ الصَّميمَ تَميمٌ، وأَنَّ الوَسيطَ الرَّبابُ، فَقلتُ: مِنَ الصَّميمِ.

قالَ: إِذاً أَنتَ مِنْ تَميمٍ؟

قُلتُ: أَجَل.

قالَ: أَفَمنَ الأَكرمينَ أَنتَ أَمْ مِنَ الأَحلَمينَ أَمِ الأَقَلِّينَ؟

فَعلمتُ أَنَّ الأَكرمينَ زَيدُ مُناةِ بنُ تَميمٍ، وأَنَّ الأَحلمينَ عَمرو بنُ تَميمٍ، وأَنَّ الأَقَلِّينَ الحارِثُ بنُ تَميمٍ.

فَقلتُ: مِنْ الأَكرمينَ.

فقالَ: إِذاً أَنتَ مِنْ زَيدٍ بنِ تَميمٍ.

قلتُ: أَجَل.

قالَ: أَمِنَ الجدودِ أَمْ مِنَ البُحورِ أَمْ مِنَ الثَّمادِ؟

فَعَلمتُ أَنَّ الجدودَ مالِكٌ، وأَنَّ البُحورَ سَعدٌ، وأَنَّ الثَّمادَ بَنو امرئِ القَيسِ، فَقلتُ: مِنَ الجُدودِ.

قالَ: فَأَنتَ إِذاً مِنْ بَني مالِكٍ؟

قلتُ: أَجل.

قالَ: أَمِنَ الذُّرى أَمْ مِنَ الأَردافِ؟

فَعلمتُ أَنَّ الذُّرى حَنظَلَةُ، وأَنَّ الأَردافَ قَيسٌ ومُعاويَةُ، وهما الكردوسان، فقلتُ: مِنَ الذُّرى.

قالَ: فَأَنتَ إِذاً مِنْ حَنظَلَةَ.

قلتُ: أَجل.

قالَ: أَفمنَ البُدورِ أَنتَ أَمْ مِنَ الفُرسانِ أَمْ مِنَ الجراثيمِ؟

فَعلمتُ أَنَّ البُدورَ مالكٌ، وأَنَّ الفُرسانَ يَربوع، وأَنَّ الجراثيمَ البَراجمُ، فَقلتُ: مِنَ البدور.

فَقالَ: فَأَنتَ إِذاً مِنْ حَنظَلةَ بنِ مالكٍ.

قُلتُ: أَجل.

قالَ: أَفَمِنَ الأَرنَبةِ أَمْ مِنَ اللَّحيّينِ أَمْ مِنَ القَفا؟

فَعلمتُ أَنَّ الأَرنبةَ دارمٌ، وأَنَّ اللَّحيينَ طَهيَةُ والعَدويَّةُ، وأَنَّ القَفا رَبيعَةُ، فَقلتُ: مِنَ الأَرنَبةِ.

فَقالَ: أَنتَ مِنْ بَني دارمٍ؟

قُلتُ: أَجل.

قالَ: أَمِنَ اللُّبابِ أَمْ مِنَ الهِضابِ أَمْ مِنَ الشِّهابِ؟

فَعلمتُ أَنَّ اللُّبابَ عبدُ اللهِ، وأَنَّ الهِضابَ مُجاشِعٌ، وأَنَّ الشِّهابَ نَهشَلٌ، فَقلتُ: مِن اللُّبابِ.

فَقالَ: فَأَنتَ إِذاً مِنْ عبدِ اللهِ؟

قلتُ: أَجل.

قالَ: أَمِنَ البَيتِ أَمْ مِنَ الذَّوافِرِ؟

فَعلمتُ أَنَّ البيتَ زُرارَةُ، وأَنَّ الذَّوافرَ الأَحلافُ، فَقلتُ: مِنَ البيتِ.

فَقالَ: فَأَنتَ إِذاً مِنْ بَني زُرارَةَ؟

قلتُ: أَجل.

قالَ: فَإِنَّ زُرارَةَ ولدٌ عَشرَةٌ فَلِأَيِّهِمْ أَنتَ؟

قُلتُ: مِنْ بَني عَلقَمَةَ.

قالَ: فَإِنَّ لِعَلقَمةَ شَيبانَ بنَ عَلقَمَةَ لَمْ يَلدْ غَيرَهُ، وتَزَوَّجَ شَيبانُ ثلاثَ نسوَةٍ: مهددَ بنتَ حمران بنِ مرثدٍ فَولَدتْ لَهُ يَزيدَ، وعَكرشَ بنتَ حاجبِ بنِ زُرارةَ فَولَدتْ لَهُ المَأمورَ، وعمرَةَ بنتَ بشرِ بنِ عدسٍ فَوَلدَتْ لَهُ فُلاناً، فَلِأَيِّهِنَّ أَنتَ؟

قلتُ: لِلمرثديَّةِ.

فقالَ: فَكُنْ يَزيدَ بنَ شَيبانَ بنَ عَلقَمةَ.

قلتُ: فَإِنَّني هوَ، فَقلتُ: يا أَخا مهرةَ، مِنْ أَينَ علمتَ هذا النَّسَبَ والعِلمَ؟

قالَ: سَمعتُ أَبي يُخبرُ عَنْ جَدي أَنَّهُ مِمَّنْ قَرأَ هذا النَّسبَ عَلى عَقيلِ بنِ أَبي طالبٍ، وأَنَّ عقيلَ بنَ أَبي طالبٍ سَمعَهُ مِنَ الأَحنفِ بنِ قَيسٍ، وأَنَّ الأَحنفَ بنَ قَيسٍ تَعَلَّمَهُ مِنْ قَيسِ بنِ عاصمٍ، وإِنَّ قيسَ بنَ عاصمٍ تَعَلَّمَهُ مِنْ أَكثَمَ بنِ صَيفي، وإِنَّ أَكثَمَ بنَ صَيفي تَعَلَّمَهُ مِنْ عبد المُطَّلبِ بنِ هاشِمٍ، ولَمْ يَكنْ في العَربِ أَعلَم مِنهُ بِالأَنسابِ.

❁ ❁ ❁

نَشَأَ سُليمانُ المهريُّ وتَرعرَعَ في ساحلِ الشِّحرِ مِنْ بلادِ اليَمنِ، والشِّحرُ هو شحرُ المَهرةِ مِنْ بلادِ اليَمنِ، قالَ الحميريُّ في «الرَّوضِ المعطارِ في خَبرِ الأَقطارِ»: «الشِّحرُ هو ساحلُ اليَمنِ، وهوَ يَمتَدُّ بَينها وبينَ عُمانَ، وهو يَتَّصِلُ بِأَرضِ حَضرَموت وفيها قَبائلُ مَهرة، وهيَ دارُ عادٍ الأُولى الَّتِي أَرسلَ اللهُ إِليهِمْ نَبيَّهُمْ هوداً عليه السلام».

ويَقولُ الحَميريُّ: «الشِّحرُ مَدينةٌ كَبيرَةٌ ليسَ فيها زَرعٌ ولا ضَرعٌ، ويَكونُ فيها العَنبَرُ، وشَجَرها الكَندَرُ، ومِنها يُحمَلُ إِلى الآفاقِ، وأَهلُها هُمْ أَكثرُ أَهلِ الأَرضِ رواحل».

عَلى هذا السَّاحلِ الرَّمليِّ تَعَلَّمَ سُليمانُ المهريُّ فُنونَ البِحارِ، وقَرأَ مُؤلفاتِ أَسَدِ البِحارِ ابنِ ماجدٍ، وبَدأَ يَخوضُ عالمَ البِحارِ في بيئَةٍ ساحليَّةٍ سَاعدتْهُ عَلى ذَلِكَ، ويُقالُ: إِنَّ سُليمانَ المهريَّ كانَ مُعاصراً لابنِ ماجدٍ.

يَذكُرُ الدَّكتورُ أَنورُ عَبدُ العَليمِ في كِتابِهِ «ابنِ ماجدٍ» حينَما يَتَحدَّثُ عَنْ سُليمانَ المهريِّ: «أَصلُ سُليمانَ المَهريِّ منْ قَريَةِ الشِّحرِ، ولا يُعلَمُ مَتَى ولدَ، ولَكِنْ مِنَ المُؤكدِ أَنَّهُ كانَ مُعاصراً لِابنِ ماجدٍ».

ويَقولُ الدّكتورُ رزقٌ سَعدُ اللهِ الجابريُّ، الأُستاذُ المُساعدُ بِقسمِ الجُغرافيا كليَّةِ الآدابِ جامعَةِ حَضرَموت:

«منذُ ظُهورِ الإِسلامِ تَطوَّرَ العِلمُ، فَأَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وظَهَرَ بِتَطبيقِ الحَضارِمَةِ لِهذِهِ التَّعاليمِ الدِّينيَّةِ في ما يَتعَلَّقُ بِالمَعرفَةِ الإِنسانيَّةِ، وبِهذا بَدأَ الاهتمامُ بِكُلِّ ما هوَ موجودٌ في البيئَةِ الطَّبيعيَّةِ، ووَظَّفوا إِمكانياتِهِمْ لِلخروجِ مِنْ مُشكلاتِهِمْ، فَبدأَ الاهتمامُ بِالرِّياضيَّاتِ وعلمِ الفَلكِ والفُنونِ والآدابِ والمِلاحَةِ. وفي الشِّحرِ بَدأَ الاهتمامُ بالبَحرِ، وظَهرَ هُنا فَطاحلَةُ العلومِ البَحريَّةِ، ومِنهُمُ المَلَّاحُ سُليمانُ المهريُّ الَّذِي وضَعَ دَليلَ المِلاحَةِ البَحريَّةِ في مَنطقَةِ المُحيطِ الهنديِّ الَّذِي عَدَّهُ البَعضُ مِنْ أَهمِّ المُرشَداتِ البَحريَّةِ».

ويَقولُ المُستَشرقُ الرُّوسيُّ «أَليكس بودتسروب» في معرضِ حَديثِهِ عَنْ تَطوُّرِ علمِ الملاحَةِ البَحريَّةِ عَندَ العُمانيينَ واليَمنيينَ، بَعدَ حَديثِهِ عَنْ كِتابِ «الفَوائِدِ» لابنِ ماجدٍ:

«ثَمَّةَ كِتاب آخر لا يَقلُّ أَهميَّةً عَنْ كِتابِ «الفَوائِدِ» لابن ماجدٍ، وهوَ كِتابُ المَلَّاحِ سُليمانَ بنِ أَحمدَ المهريِّ، وهوَ «العُمدَةُ المَهريَّةُ في ضَبطِ العُلومِ البَحريَّةِ»، الَّذِي وضَعَهُ بَعدَ نِصفِ قرنٍ مِنْ كِتابِ ابنِ ماجدٍ، ويَتَضَمَّنُ وصفاً لِمسافَةِ (1500 كم) مِنْ شواطئِ أِفريقية الشَّرقيَّةِ و(500 كم) مِنْ شَواطئِ الهندِ، و(200 كم) مِنْ شَواطئ جنوبِ شَرقِ آسيا، ويَرى الباحثانِ الرُّوسيانِ «يوسُفُ ماجيدوفيتش» و«فاديمُ ماجيدوفيتش» أَنَّ مُؤَلَّفَ

سُليمانَ المهريِّ مِنْ وجهَةِ نَظَرِ أَيَّامِنا، وفي تاريخِ الاكتشافاتِ الجُغرافيَّةِ يَنبَغي أَنْ يَتَبوأَ مَكانَةً هامَّةً عَنْ حَقٍّ وجَدارَةٍ.

❁ ❁ ❁

عُرفَ المَهريُّ كَربَّانٍ خَبيرٍ عَلى طُولِ السَّاحلِ الجنوبيِّ لِحَضرموت، فَقَدْ أَبحَرَ وجابَ عَلى سَواحلِ إِفريقية الشَّرقيَّةِ، وسَواحلِ الهندِ وجُزرِ المَلايو، ووَصفَ خُطوطَ المِلاحةِ لِهذِهِ الجُزرِ.

لَقدْ أَضافَ سُليمانُ المهريُّ مَعلوماتٍ جَديدَةً عَلى ما كَتَبَهُ أُستاذُهُ ابنُ ماجدٍ في مُؤلَّفاتِهِ العَديدَةِ فيما يَخصُّ عالَمَ البِحارِ وعلمَ المِلاحَةِ البَحريَّةِ، وصَحَّحَ بَعضَ الأَرقامِ الخاصَّةِ بِالقِياساتِ البَحريَّةِ والجُغرافيَّةِ في حسابِ المَسافاتِ بينَ البِحارِ والسَّواحلِ والجزرِ.

جاءَ في موسوعَةِ عُلماءِ الفَلكِ: «إِنَّ المهريَّ صَحَّحَ الأَرقامَ الخاصَّةَ بِالأَخنانِ الأَربَعةِ الأُولى في الجَداولِ البَحريَّةِ الَّتِي أَورَدَها ابنُ ماجدٍ، فَقدَّمها عَلى شَكلِ كُسورٍ توريبيَّةٍ مُستَخدماً طَريقَةَ أَرباعِ الجيبِ، كما رَتَّبَ بِشَكلٍ مَنطقيٍّ المَسافاتِ البَحريَّةَ المُوافقَةَ للارتفاعاتِ المُختلِفَةِ المُقاسَةِ بالأَصابعِ لِتحديدِ مَواضعِ الأَمكنَةِ عَلى الخَريطَةِ البَحريَّةِ لابن ماجدٍ بالنِّسبَةِ لخَطِّ الزَّوالِ الأَوليِّ، ولَقدْ بَلغَ الفارقُ بينَ المَوقعِ الَّذِي حَدَّدَهُ المهريُّ لجَزيرَةِ «لاسوند»، وبينَ الَّذِي أَعطاهُ ابنُ ماجدٍ لهذا المَوقعِ مقدارَ إِصبعَينِ.

ولَقدْ أَظهرَتْ مُؤلفاتُ المهريِّ المتنوعَةُ خبرَتَهُ في مَجالِ عالمِ البِحارِ، والَّتِي كانتْ عوناً كبيراً لِمنْ أَتوا بَعدَهُ مِنَ العُلماءِ.

أمَّا أَهمُّ مُؤلفاتِهِ الَّتِي نَشَرها لَهُ المُستَشرقُ الفَرنسيُّ «جبريال فيرن» مَعَ مُؤلفاتِ ابنِ ماجدٍ، فهيَ:

1 ـ كتابُ العمدَةِ المهريَّةِ في ضَبطِ العُلومِ البَحريَّةِ.

2 ـ كِتابُ المنهاجِ الفاخرِ في علمِ البَحرِ الزَّاخرِ.

3 ـ كتابُ قِلادةُ الشُّموسِ واستخراجِ القَواعدِ.

4 ـ كتابُ تُحفَةِ الفُحولِ في تَمهيدِ الأُصولِ في الفَلكِ.

5 ـ أُرجوزَةٌ في علمِ البِحارِ.

توفيَ المهريُّ سَنةَ (961) هجريَّةً، ودفنَ في بَلدةِ الشِّحرِ باليَمنِ.

الأَسئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ لِماذا كانَ المهريُّ جديراً بِلقبِ مُعلِّمِ البِحارِ؟

2 ـ ما هيَ أَهمُّ الأَعمالِ الَّتِي قامَ بِها المهريُّ؟

3 ـ أَينَ ولدَ المهريُّ، وإِلى مَنْ يَنتَسبُ؟

4 ـ ما هيَ أَهمُّ صفاتِ المهرةِ؟

5 ـ اذكُرْ ثَلاثَةَ أَسماء بَرزوا مِنَ المهرةِ.

6 ـ ماذا اعتبِرَ المهريُّ؟

7 ـ ماذا صَحَّحَ المهريُّ؟

8 ـ عَدِّدْ مُؤلفاتِ المهريِّ.

المحتوى

ابْنُ جَلْجَلَ رائِدُ البَحْثِ العِلميِّ في عِلمِ النَّباتِ 5
ابنُ البيطارِ رئيسُ العَشَّابينَ وطَبيبُ الملوكِ 15
ابنُ الرُّوميَّةِ النَّباتِيُّ الفَقيهُ 25
ابنُ وافِدٍ النَّباتيُّ الوَزيرُ 35
أَبو حَنيفَةَ الدَّينوريُّ النَّباتيُّ، واللُّغويُّ الحاذِقُ 45
رشيدُ الدِّينِ الصُّوريُّ النَّباتيُّ اللَّامعُ، والطَّبيبُ المُجاهِدُ 55
مُوَفَّقُ الدِّينِ البَغداديُّ النَّاقِدُ اللَّاذِعُ، والنَّباتيُّ السَّائِحُ 65
ابنُ ماجِدٍ النَّجديُّ أَسَدُ البِحارِ، وشاعرُ القِبلتينِ 75
سُليمانُ التَّاجرُ سِندِبادُ البِحارِ 85
سُليمانُ المَهريُّ مُعَلِّمُ البِحارِ 95
المحتوى 107